

AL-TAWIL

AL-TANABBU' AT

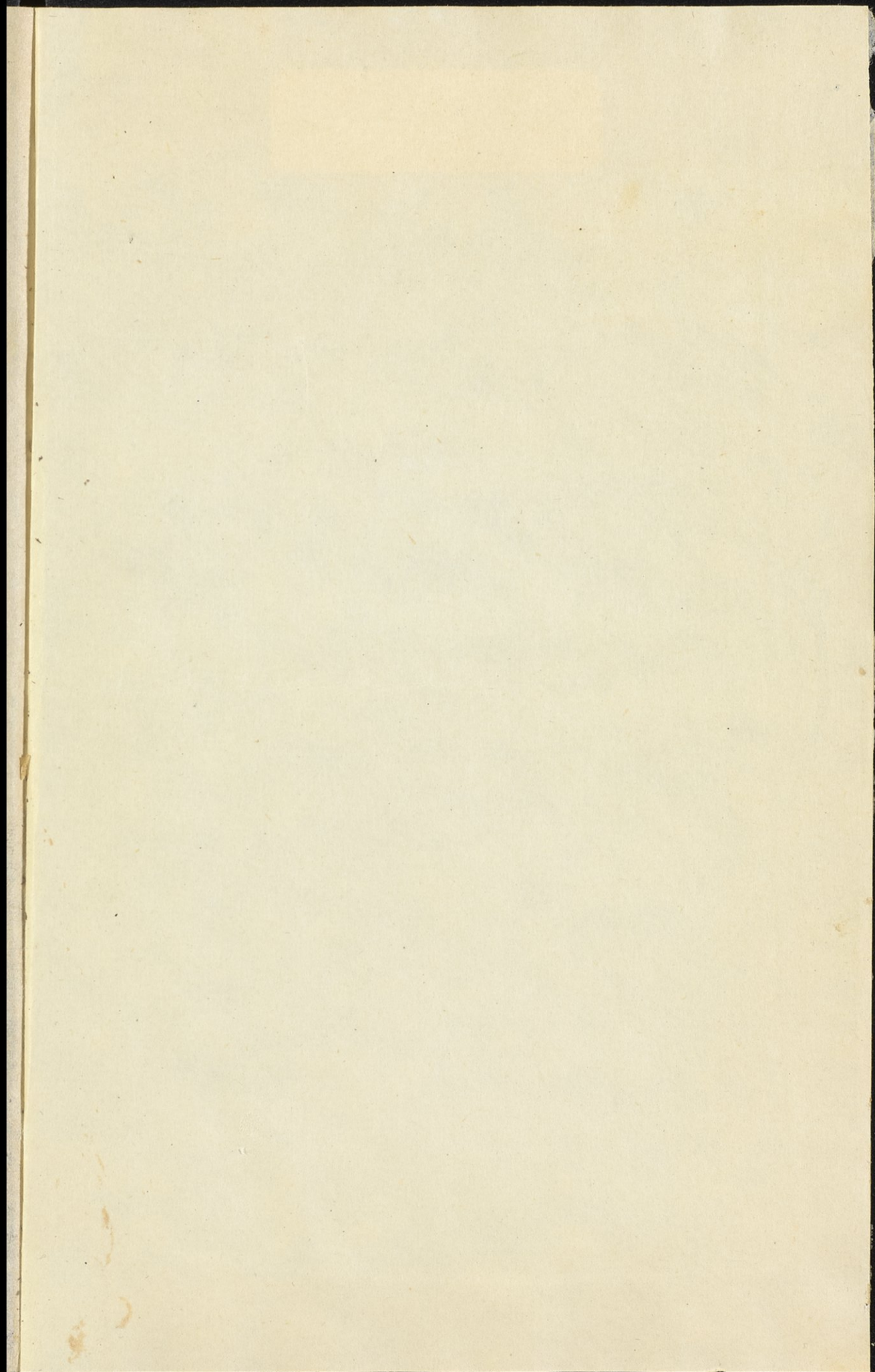
2276.897.388
al -Tawil
al-Tanabbu'at...

[illegible]

Princeton University Library



32101 072243478



حلايب

al-Tawil, Tawfiq

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد داني، رئيس الجمعية - والدكتور عثمان أمين، مديرها العام

al-Tanabbu'at

التنبؤ بالغيب

عند مفكرى الاسلام

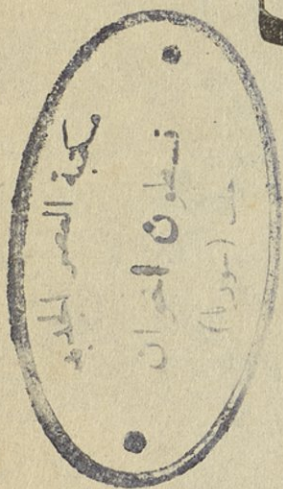
تأليف

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأولى

١٩٦٤ هـ - ١٩٤٥ م

ملتزموا الطبع والنشر اصحاب
دار احياء الكتب العربية
عيسى البباني الحلبي وشركاه





2276

897

388

مخالفات

مخالفات

مخالفات

مخالفات

مخالفات

مخالفات

مخالفات

مقدمة

ظهر الميل إلى اكتشاف الغيب المحجّب ، منذ وُجد على ظهر الأرض إنسان ، لأن مرادّ هذا الميل إلى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول - وهي معرفة تراد لذاتها أصلاً ، وإن جرت العادة باتخاذها أداة لخدمة غايات - ومن هنا كان التنبؤ بالغيب ، مثار افتتان الشعوب في كل زمان ومكان^(١) . وليس ينفي هذا ما يلحظه البعض من أثر انتشار « العلم » في إضعاف هذا الميل عند الناس ، إذ ليس العلم في كل صورّه ، إلا محاولة ترمي إلى اكتشاف مجهول - واختلاف المناهج وتباين المقاصد ، لا يغير من هذه الحقيقة كثيراً .. !

وقد أدى تشارك البشر في فطرية النزوع نحو إدراك الغيب ، إلى تشابه الكثير

(١) حسب القارئ في بيان هذا الميل الفطري عند الناس ، أن يطلع على أبحاث :

Bouché — Leclercq, L'Histoire de la Divination dans l'antiquité
بأجزائه الأربعة - ثم بحثه عن التنبؤ الإيطالي (باريس ١٨٨٢) وبحثه عن التنجيم الإغريقي (باريس ١٨٩٩) وأن يقرأ « العلم بالغيب » Divination لفيلسوف الرومان وخطيبهم شيشرون Cicero

وقد نقلناه إلى العربية وألحقناه برسالتنا للدكتوراه « الأعلام » ، وفي نيتنا أن ننشر ترجمته مع التعليق عليها قريباً ، وكذلك (Dr.Hastings) Encyclopeadia of Religion and Ethics, art. Divination وقد اشترك في وضع هذه المادة سبعة عشر عالماً ، تناول كل منهم الحديث عن التنبؤ عند الشعب الذي تخصص في دراسته ، وهذه المصادر تزود من يريد التوسع في هذا الموضوع ، بكثرة من المراجع .

من أساليب التنبؤ عند الشعوب في مختلف العصور ، وقد خدعت البعض هذه الظاهرة ، فقررروا بأن هذا التشابه في كل حالاته ، مرجعه إلى نقل اللاحق عن السابق وعدوى الثقافات وتزاوج الآراء ، واستندوا في هذا إلى انتقال الحضارات والثقافات ، من شعوب الشرق في ماضيه السحيق ، إلى شعوب اليونان والرومان ، وانحدارها عن هؤلاء ووراث تراثهم إلى العالم الإسلامي ... والرأى عندنا أن هذا التبادل العقلي بين الشرق والغرب ، إذا كان له تأثيره في وجوه التشابه في بعض فنون التنبؤ ، فالراجح أن الكثير من وجوهه الأخرى ، مرده إلى وحدة العقل البشري ، وتشابه استجاباته - مع اختلاف الزمان والمكان - كلما تشابهت المؤثرات ... بهذا يفسر جمهرة المحدثين من علماء الاجتماع الكثير من مظاهر التشابه في الحضارات البدائية ، حتى في بعض الحالات التي ثبت فيها الاتصال بين هذه الشعوب ..! (١)

وقد مكنت الأديان لهذا الميل الفطري عند البشر ، لأنها لا تستقيم بغير الإيمان بالغيبيات ، وليس في هذا ما يضير الأديان في شيء - وقد أقر الإسلام نفسه العلم بالغيب ، وردّه إلى علام الغيوب ومن يجتنبه تعالى من رسله وصفوة المؤمنين من عباده ، وعرف العالم الإسلامي صنوفاً من مدركي الغيب ، يتقدمهم الرسل والأنبياء ، ويلهمهم الأولياء وأهل الكشف الصوفي ونحوهم من المجانين والبهاليل والمرضى والمعتوهين من المريدين ، وأصحاب الرؤيا الصادقة ، وغيرهم ممن لا يتوسلون إلى إدراك الغيب

(١) إذا كان Elliot Smith قد رفض هذا الرأى الذي أيده Frazer وغيره ، ورد الحضارات إلى اختراع شعب واحد - قدماء المصريين - عنه أخذتها بقينة الشعوب ؛ فقد دحض رأيه ماكس مولر ، وبدا هذا التفسير صحيحاً حتى في دقائق البحث العلمي ، وليس الاتفاق الفجائي الذي وقع عام ١٨٥٨ بين « ألفرد والاس » A. Wallace و « داروين » Darwin في وجهة النظر التطورية ، إلا شاهداً على صحة ما نقول . وسنعود إلى بيان هذا في آخر فصل في هذا الكتاب

صناعة واكتسابا ، وأولئك هم أهل التنبؤ الطبيعي Natural Divination كما كان يسميه شيشرون Cicero وغيره من قدماء مؤرخيه .

وعرف العالم الإسلامى - مع هؤلاء - صنوفاً من أهل التكهن الصُّنْعِي (١) Artificial Divination الذى يقوم على منطق العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، وصدق الحدس وتوثب الفطنة ودقة الملاحظة ووقدة الذكاء ، ونحو هذا مما يحى أغلبه اكتساباً - قد لا يفلح إذا لم تصحبه فِطْرَةٌ تمكِّن من بلوغ غايته - وهو يشمل فى الإسلام الكهانة والعرافة والعيافة والنجامة والطيرة والفراسة وما يتصل بهذه الفنون . والاستناد إلى منهج البحث العلمى ، والاهتمام بقانون العلية عند تحليل هذه الفنون التى استخدمت للكشف عن الغيب المحجب ، يُفضى إلى عكس النتيجة التى انعقد عندها رأى جمهرة مفكرى الإسلام - فلاسفةً وصوفيةً ورجال شرع...!! وهذه نقطة ستتكشف مقدماتها فى الفصول التالية ، ونعود إلى مناقشتها فى نهاية هذا البحث .

وحسبنا الآن أن نقول إننا حاولنا فى هذا الكتيب ، أن نؤرخ وجهات النظر الإسلامية فى أشهر أساليب التنبؤ ، وأن نتتبع أصولها فى القرآن الكريم والتراث الإسلامى إجمالاً ، وتأدّى بنا هذا إلى الإشارة إلى ما يشبه هذه الآراء ، فى تراث القدامى من الغربيين والشرقيين على السواء (٢) ، وإن اضطررنا ضيق المقام فى كل حال ،

(١) الصنعي لفظ أطلقه مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، على ما يقابل عند الفرنجة Artificial (fr:ielle)

(٢) كان أكبر اعتمادنا فى ذلك على كتاب شيشرون السالف الذكر ، وتعليقات طبعة « جارنييه » Garnier الفرنسية و « لوب » Loeb الإنجليزية ، ويليه « بوشيه لوكليك » ولم نجد ما يبرر التوسع فى ذلك لضيق المقام .

إلى الإيجاز حتى فيما يتطلب الإسهاب . فحسبنا أن نثير في أذهان القراء هذه الوجوه من النظر العقلي ، كما تضمنها تراثنا الإسلامي ، عسى أن تكون إثارتها مزاجاً من اللذة العقلية والمنفعة المشتركة .

ولعل من المناسب أن نشير - قبل أن ننتهي من هذه المقدمة - إلى أن هذا الموضوع - فيما نعلم - بكر لم يطرقه أحد الباحثين من قبل ولا سيما ما اتصل منه بأساليب التكهن الصنعى - إذا استثنينا ما عرفته بعض فنونه في العربية قديماً ، من مصنفات أو مقالات قصار ، قلّ منها ما يدخل - من باب التجوز - في نطاق البحث العلمى .

وبعد ، فليس يسعنى فى ختام هذه الكلمة ، إلا أن أحيى الجمعية الفلسفية المصرية ، ممثلة فى رئيسها الأستاذ الدكتور على عبد الواحد ، شاكرآله ملاحظاته الطيبة على بعض نواحى هذا البحث ...

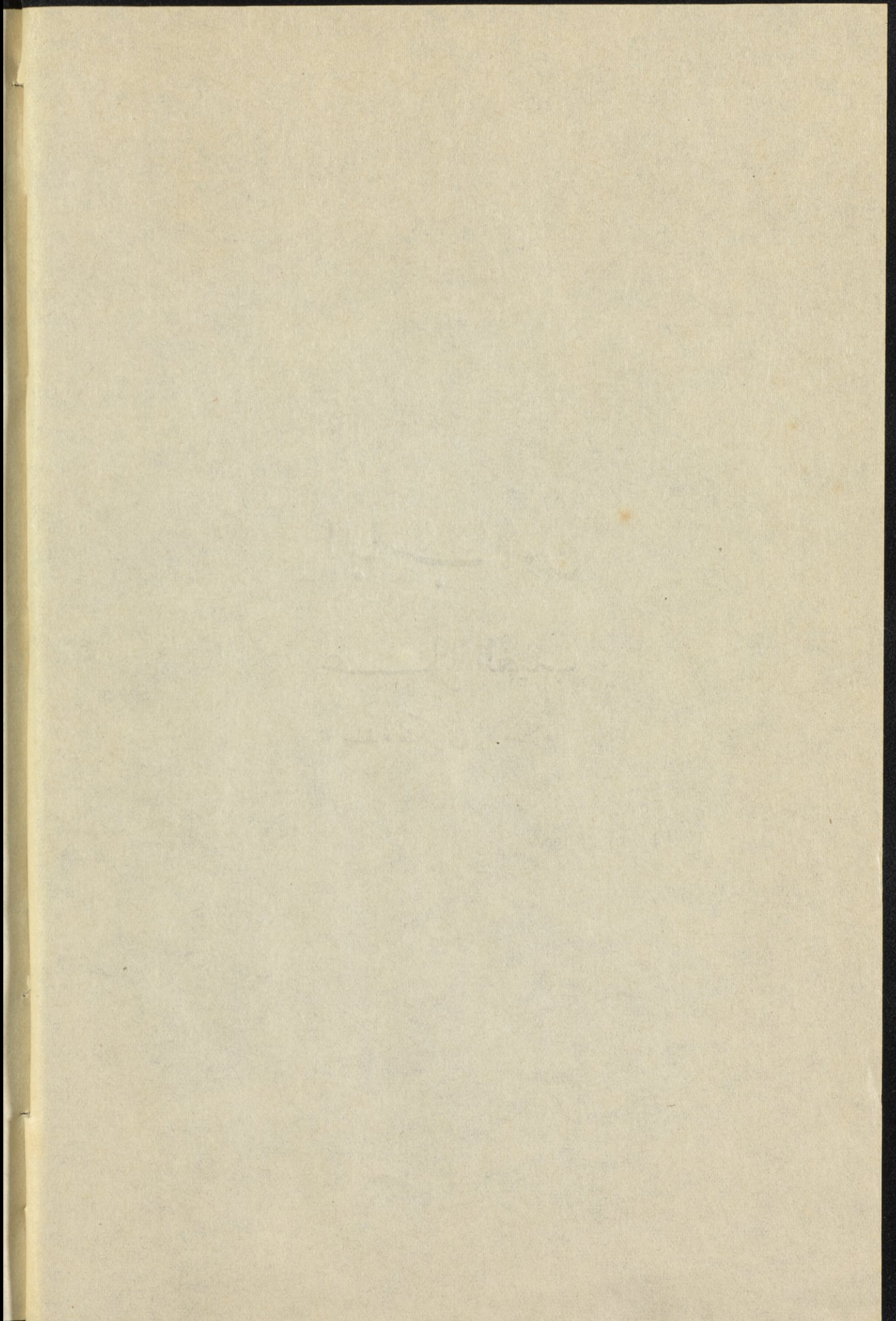
توفيق الطويل

الإسكندرية فى { شوال ١٣٦٤ هـ
سبتمبر ١٩٤٥ م

الباب الأول

علم الغيب

عند مفكرى الإسلام



علم الغيب

هر الغيب :

الغيب هو الأمر الخفى الذى لا يدركه الحس ، ولا تقتضيه بدهة العقل^(١) ، ويقع العلم به دون مقدمات أو أسباب تفضى إليه ، ومن غير استدلال منطقي ينتهى إلى معرفته ، ودون أن يثبت عنه خبر صادق^(٢) أما ما يدرك بالدليل والقياس والنظر ، فإنه مجرد ظن ، والظن غير العلم^(٣) . وعلى هذا يكون العلم بالغيب إدراك جزئى أو كلى مغيب عنا ، دون التوصل إلى ذلك بصناعة أو نحوها مما يستند إليه الزجر والتطير وما إليه^(٤) .

(١) التهانوى ، كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٠٩٠ وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدى أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر فى الجزء الخامس من المجلد الثامن) ولكن هذا التعريف أحق فضيلة الأستاذ مصطفى صبرى (شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية سابقا) فندد به فى كتابه (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) وقرر (ص ١٤٩) بأن الغيب ما غاب عن الحاسة ، والذى يبدو لنا أن التعريفين ليس بينهما تناقض ، وإن كان كلاهما غير واف بالحاجة .

(٢) اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ طبعة المطبعة العربية عام ١٩٢٨ م ، وابن خلدون فى المقدمة ص ١٠٤ طبعة المطبعة البهية بمصر .

(٣) التهانوى ، فى الكشف ج ١ ص ٥٢

(٤) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ٥ ص ٣٩ الطبعة الأولى بمطبعة التمدن ١٣٢١ هـ

علم الغيب لا يجيء اكتساباً :

ومن أجل هذا ذهب جمهور مفكرى الإسلام إلى أن الله وحده علام الغيوب ،
فليس يعرف الغيب أحد من البشر « لا منجم ولا كاهن ولا نبي من الأنبياء
ولا ملك من الملائكة إلا الله عز وجل » وذلك لأن معارف المرء لا تتجاوز ثلاثة
ميادين : أولها ما اتصل بالماضى ، وثانيها ما انصب على الحاضر ، وثالثها ما امتد إلى
المستقبل . ويدرك المرء هذه الآفاق بثلاث طرق : أولاها السمع والإخبار ، وثانيها
الإحساس بما هو حاضر موجود ، وثالثها الاستدلال على ماهو كائن فى المستقبل -
وهذه الطريق تشمل النجوم والزرز والقال والكهانة والعيافة ، وتتضمن تأويل
الاحلام والنظر فى الكف وضرب الحصى والعرافة ونحوها مما يحتاج إلى تعلم ونظر
واعتبار ، وليس هذا كله من الغيب فى شىء ، فأما يقع الغيب بالحواطر والوحى
والإلهام وهذا لا يجيىء صناعة ولا اكتساباً^(١) وتوجه المرء بقلبه إلى الله ليكشف له
الغيب ، من صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ومن أجل هذا
قلّ الكشف عند أكابر الصحابة وكمل السلف الصالح ، ناهيك بمن يلتمسون الغيب
بالتوجه إلى غير الله...^(٢)

(١) اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) كأن يتوجهوا إلى الكواكب كما يفعل أهل النجامة فيما يقول البعض (قارن جواهر
الكلام للأبيحى - ص ٢٠٥ من الجزء الثانى من المجلد الثانى لمجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد
ديسمبر ١٩٣٤) نشرة الدكتور أبى العلا عفيفى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فاروق
الأول .

العلم بالغيب عند صفوة البشر :

الله وحده علام الغيوب ، ولكن استثماره تعالى بالغيب ، ليس معناه في نظر الكثيرين من مفكرى الإسلام ، سلب القدرة على معرفة الغيب عن كافة البشر ، فإن معرفة الغيب هبة لمن شاء أن يجتنبه الله من عباده ، أو فطرة يؤتيها صفوة المؤمنين وخاصة الناس ، ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح . وآية هذه الفطرة أن أهلها إذا توجهوا إلى تعرف الكائنات المغيبة عنهم ، اعتراهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادئ الغياب عن الحس ، ويتفاوت هذا بتفاوت هذه الفطرة عند أهلها ، ومن لم تهياً له هذه الآية فليس من إدراك الغيب في شيء ، وإعما هو ساع في تنفيق كذبه^(١) وشبيه بهذا ما يقع لأصحاب الوحي من الأنبياء ، إذ تدركهم غيبة عن الحاضرين معهم ، يصحبها غطيظ كأنها غشى أو إغماء في رأى العين ، وليست منهما في شيء ، ولكنها في حقيقة الأمر استغراق في لقاء الملك الروحاني ، بما تهياً لهم من إدراك خارج عن نطاق البشر إطلاقاً ، ومن أجل هذا اتهمهم أهل الشرك بأن لهم رثياً أو تابعا من الجن ، ولو لم يلتبس عليهم ماشهدوه من ظاهر الأحوال ، لعرفوا أن ذلك وحي من الله^(٢) .

ويقول « لين » E. W. Lane في معرض حديثه عن أهل الدرك من الأولياء : جرت العادة بأن يقال إن الولي يعرف ما يخفى على غيره من البشر ، إذ يهبه الله القدرة على إدراك أسرار من الغيب ، تقتضى ولايته العلم بها ، وبذلك يطلع على مالا يكون في

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٨ - ٩٩ ، ١٠٢

(٢) المصدر السالف ص ٨٠

متناول الإدراك الحسى ، وهذا يناقض - فيما يقول « لين » - تناقضا صريحا ما يقرره القرآن الكريم فى عدة مواضع ، من أن حجاب الغيب الذى تقصر الحواس عن إدراكه ، لا يرتفع لغير الله ، ولكن المسلمين قلما تساورهم الحيرة فى مناقشة موضوع ، فهم يدللون على أن الآيات القرآنية فى هذا الصدد ، تتضمن الحديث عن العلم بالغيب بمعناه المطلق ، ويرون أن الله يهب أوليائه هذا العلم متى أراد ذلك ^(١) وسنعود إلى مناقشة ما يراه الأستاذ « لين » تناقضا بين موقف القرآن وموقف حملته من المسلمين .

هذا ما يقع للأيقاظ من مدركى الغيب ، أما النيام فقد يوحى الله إليهم برؤيا صادقة يطلعهم فيها على غيبه ، فيرون مكنوناته دون أن يخرجوا عن حالتهم الطبيعية فى كثير أو قليل .

ومن هذا نرى أن الله وإن استأثر بعلم الغيب ، فإنه قد يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه ، فيكون إدراكهم من خصائص النبوة ، وهى لا تجبىء اكتسابا ، وقد يقوى بعض المخلصين من أتباع هؤلاء الرسل ، على الإشراف على عالمه بانكشاف الحجاب وإدراك شئ من تلك الأنوار ، ودون هؤلاء أفراد ربما كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك ، فيدركون شيئا من عالم الغيب أحيانا ^(١) .

هذا هو الاتجاه الغالب عند مفكرى الإسلام ، وإن كنا سنعرض فى ختام هذا

(1) E.W. Lane, The Manners and customs of the Modern Egyptians.

(٢) السيد رشيد رضا ، الوحي المحمدى ص ١٦٥ وتفصيله فى جزء التفسير السابع (له)

ص ٤٢١ ، ٤٥٦ - ٤٦٩ وملحقه فى الجزء التاسع ص ٥١٣

البحث ، إلى بيان شيء من وجوه الخلاف بين المفكرين في تأييد التكهن الصنعى أو إنكاره ، مقدرين بأن التأييد لا يخلو من التأثير بالاتجاهات الهيلينية القديمة ، وأن الإنكار مرجعه إلى الروح الدينية الإسلامية .

عند الإدراك الغيبى في نظر مفكرى الإسلام :

ومردّ القدرة على إدراك الغيب - في نظر هؤلاء المفكرين - إلى ذهاب الحس وزوال حجابهِ ، وقد يتهيأ هذا لبعض المجانين والمرضى والقتلى والمعتوهين من المريدين ، ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس عن علائق البدن ، وانشغالها عن التفكير العقلى ، ومن هنا وقع الغيب لهؤلاء ، ولمن يحاولون أن يموتوا بالمجاهدة موتاً صناعياً ، بقتل كافة قواهم البدنية ، وبمحو آثارها التى تلوث بها النفس^(١) ، فليس يمنع النفس من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها فى البدن والحواس وشواغلها ، فإن الحواس بما فطرت عليه من إدراك حسى جسمانى ، تجذب النفس إلى الظاهر دواماً ، ولكن النفس إذا انغمست من الظاهر إلى الباطن ، ارتفع حجاب الحس لحظة ، تتطلع فيها النفس إلى الذوات التى فوقها فى الملاء الأعلى ، لما بين أقفها وأقفرهم من وجوه الاتصال ، وفى هذه الذوات صور الموجودات لأنها إدراك محض وعقول بالفعل ، فتقتبس النفس منها علماً ومعرفة^(٢) ، ومن أجل هذا جاز وقوع العلم بالغيب ، لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس فى يقظة أو منام ، أليس فى النوم زوال لحجاب الحس^(٣) . . ؟

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٥

(٢) المصدر السالف ، ص ٩٢ - ٩٣ و ٤١٥ - ٤١٦

(٣) وهكذا أخرج جمهرة مفكرى الإسلام من مدركى الغيب ، مدعيه من أهل العرافة والنجامة والعيافة والطيرة والسحر ونحوه .

اتجاهات المفكرين في تفسير الوحي والإلهام :

والإسلام - كغيره من الديانات - لا يستقيم دون الاعتقاد في صحة الوحي والإلهام ، ولهذا كان لا بد لمفكره من أن يعرضوا لتفسير الوحي تفسيراً عقلياً يدحض مفتريات منكريه ، أو يصد تيارها على أقل تقدير . وقد اختلفت وجهات نظرهم في مسالكها وتفصيلها ، ولكنها اتفقت في أصولها والتقت عند تأييده ، وحسبنا الآن أن نشير موجزين إلى هذه الاتجاهات :

الاتجاه الفلسفي في تفسيره :

فأما الفلاسفة فقد ذهب جمهورهم في تأويله إلى ترقى العقل البشري في مراتب الإدراك ، حتى إذا بلغ مرتبة الفيض والإلهام ، وأضحى - عقلاً مستفاداً - اتصل بالعقل الفعال الذي يربط بين العالم العلوي والعالم السفلي ، وعند وقوع هذا الاتصال يتقبل المرء فيض الأنوار الإلهية ، وتنكشف له مكنونات الغيب المحجب ، وقد يقع هذا الاتصال بالتأمل العقلي للحكماء ، وبالخيلة القوية مع هذا التأمل للأنبياء والواصلين من الأولياء . فالوحي عند فلاسفة الإسلام اتصال النفوس الناطقة بعقول الأفلاك ونفوسها اتصالاً معنوياً يمكنها من الاطلاع على ما يتضمنه من صور الحوادث التي ترسم في النفس البشرية ، كما يحدث إذا حاذت مرآة مرآة أخرى فيها نقوش تنعكس إلى الأولى كما يقول ابن سينا في إشارات .

الاتجاه الصوفي في تفسيره :

وقد تشعبت وجهات الصوفية في نظرهم إلى ذلك ، فمنهم من تحول عنده الاتصال
الفلسفي إلى اتحاد ترتبط فيه النفس البشرية بالروح المقدسة - أى العقل الفعال في
لغة الفلاسفة - بعد تجردها من علائق الحس وشهوات الجسم ونحوها مما أبان عنه
السهروردي وأتباعه من الإشراقيين من الصوفية ، ومنهم من رفض الاتصال
الفلسفي والاتحاد الصوفي السالف - كالغزالي - وقال بأن الإلهام الذى يفيض عنه
العلم اللدنى، يصدر عن الله دون وسيط ، ومرده إلى فطرة النفس وتهيمها له من غير
معلم ، فإن النفس مهيأة بطبيعتها لاستقبال الوحي والإلهام الإلهي متى تجردت من
علائق حسها ، بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال
بكنه الهممة على الله مع الجوع والسهر ونحوه حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين
القلب والروح، وتطالع النفس جواهر الملكوت وتنكشف لها مكنونات الغيب .

وليس يعنينا اختلاف الصوفية في التفاصيل ، بقدر ما تعنينا النتيجة التي انتهوا
إليها ، وهى نتيجة سلم بها بعض الحنابلة من أهل السنة ، الذين ناصبوا المتطرفين من
الصوفية العدا . وهكذا يتفق صوفية الإسلام مع فلاسفته - فيما يقول معالى أستاذنا
مصطفى باشا عبد الرازق - على اعتبار الوحي إشرافاً من النفس الإنسانية على حقائق
الكون المنبثة في عالم فوق عالمنا ، ولكن بين مذهب الصوفية ومذهب الفلاسفة
فروقا ، لأن العالم العالى عند الفلاسفة ، عقول مجردة ونفوس هى عقول الأفلاك
ونفوسها ، وصور الأشياء منقوشة فيها بحكم أنها مصادر لها وأسباب لوجودها ،
وبحكم أنها مجردة بطبيعتها ودرآكة ، أما العالم العالى - عند الصوفية - الذى يفيض منه

الوحى والإلهام ، فهو لوح محفوظ كتب الله فيه الوجه الذى أراده ، ما كان وما يكون ، وملائكته هم أجسام من نور ذوو نفوس كريمة لها اطلاع على ما فى اللوح ، وهى أيضاً ألواح ، خطت فيها صنوف من العالم الإلهى ، وما الوحى إلا أن يتلقى النبى من الملك شرائع إلهية مع شهود الملك وسماع خطابه ، إذ لا يجمع بين شهود الملك وسماع خطابه إلا الأنبياء ، أما الولى فإنه إن سمع صوتاً فهو لا يرى صاحبه ، وإن رأى الملك لا يسمع له كلاماً - كما جاء فى كتاب الكبريت الأحمر .

ومنشأ الخلاف أن الفلاسفة فسروا النصوص الدينية بما يوافق ما استقر عندهم ، من نظام الكون وترتيب العوالم سفليها وعلويها ، فهم يجعلون الملائكة الذين ورد ذكرهم على لسان الشرع ، عبارة عن العقول المجردة والنفوس الفلكية التى أثبتتها فلسفتهم ، ويؤولون النصوص تأويلاً يتفق مع أغراضهم . أما الصوفية فإنهم يعتمدون أولاً على النصوص الدينية ، ويحاولون مبلغ جهدهم أن يشرحوا مبهمها ويوفقوا بين ظواهر التضارب بينها ، مضطرين إلى الركون إلى منازع الفلسفة ، وإلى ما يسمونه ذوقاً تقتصر عنه العبارة ويدركه المارفون ، فهم أقل إمعاناً فى التأويل ، وأقل وضوحاً فيما يقول معالى الباشا . وقد كان رأى الفلاسفة يظهر فى عصر النهوض ، كما يظهر رأى المتكلمين فى عهد الركود ، ومذهب المحدثين من أمثال محمد عبده ، إنما هو مذهب الفلاسفة قد طرزت حواشيه مذاهب المتكلمين^(١) .

(١) معالى مصطفى باشا عبد الرازق ، فى بحث له عن الوحى - لم يطبع بعد ، وسنعود للحديث عن هذا الموضوع عند ما نعرض للكلام على « إمكان الوحى » و « طريقة الكشف عند الصوفية » ... الخ .

مناابع هذه الأفكار :

إن الاعتقاد في عالم الغيب والقدرة على ارتياد مجاهله ، أعرق في القدم من النظر العقلي عند بني البشر . لأن الناس لم يهتدوا إليه بمنطق عقولهم ، بل بوحى طبيعتهم وهدى شعورهم ، وليس يعنيننا الآن أن نؤرخ هذا الاعتقاد ، ولكننا سنحاول أن نرد الأفكار التي قيلت فيه إلى المناابع التي صدرت عنها ، وما دمنا بصدد تفكير إسلامي ، فإن من سداد الرأي ألا يتجه بنا البحث عن أصوله خارج الإسلام ، حتى إذا عز الاهتداء إلى جذوره في نطاق الدين ، أتجهنا إلى البحث عنها فيما اتصل بالمسلمين من تراث القدماء .

موقف القرآن الكريم :

ذاعت أساليب التنبؤ عند عرب الجاهلية ذيوغاً واسع المدى ، فلما نزل القرآن هاجم هذه الأساليب ، وحصر الإدراك الغيبي في الله وحده ، ليجتث الوثنية من جذورها ، فلا يخشع أو يلجأ لغير الله إنسان^(١) ، قال تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »^(٢) وكرر هذا المعنى في أكثر من آية^(٣) . ولكن الله يطلع على غيبية من يجتبيه من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء »^(٤) ويقول كذلك « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٥٤ (الطبعة السادسة عام ١٣٥١ هـ)

(٢) سورة الأنعام ، آية ٥٩

(٣) سورة هود آية ٣١ ، النمل آية ٦٥ والأنعام آية ٥٠ وغيرها

(٤) آل عمران آية ١٧٩

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم»^(١). ومع أن آيات القرآن التي تنصب على العلم بالغيب ، يبدو أنها ترده إلى الله ومن يجتنبه من رسله ، فإن أهل السنة قد انعقد إجماعهم في تفسير الآيات ، على إمكان اطلاع غير الرسل على الغيب ، اطلاعا لا يفيد أكمل مراتب العلم ، أو قصر اطلاعهم على بعض ميادين الغيب ، وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين^(٢).

والقرآن بعد هذا يحارب التنبؤ الذي يقصد إليه أهله ويلتمسونه صناعة واكتسابا، سواء اقتصروا في هذا على التوصل إلى الله^(٣) ، أو اعتمدوا فيه على الشواهد الحسية من قداح أو أزلام أو نحوها^(٤).

والله يطلع على غيبه من شاء بطرق شتى : فقد يرسل ملكا يتمثل بشراً سوياً^(٥) وقد يكلم الله الرسول تكليماً^(٦) ، وقد يلقى الله المعاني في نفس الموحى إليه كما وقع لبعض الأنبياء ، وقد يوحى الله بالمعاني في رؤيا صادقة تكشف عن مجاهل الغيب^(٧)

(١) الجن ، آية ٢٦ - ٢٧

(٢) انظر Flügel في « غيب - الغيب - بالغيب ... الخ

ويشهد بصحة هذا ، ماورد في سورة الكهف عن صاحب موسى الذي أطلعه الله على غيبه بشأن السفينة والغلام والحداد ، مع أنه لم يثبت أنه كان نبيا أو مرسلا ؛ وما ورد في سورة مريم عن هبوط الروح عليها ، وتمثله لها بشراً سوياً ، وإطلاعه إياها على ماسيكون من أمرها ، وأمر ولدها ، مع أن مريم ليست نبيا ولا مرسلا .

(٣) الصافات آية ٦ - ٩ والطور آية ٣٧ والجن آية ٨ - ٩ ، الشعراء آية ٢١٠ -

٢١٢

(٤) المائدة آية ٣ ، ٩٠

(٥) مريم آية ١٦ - ١٩ ، الذاريات آية ٢٤ - ٣٠

(٦) النساء آية ١٦٤ والأعراف ١٤٤

(٧) الصافات آية ١٠٢ - ١٠٧ ويوسف آية ٤ - ٦

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد تضمن اتجاهات مفكرى الإسلام فى تعريف الغيب وتحديد آفاقه ، حتى لا نكاد نجد رأياً خلفوه فى هذا الصدد إلا وقد نصت عليه آياته الكريمة .

ولعل من الطبيعى ألا يتضمن القرآن اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحي وإمكان وقوعه تفسيراً عقلياً ، فما لهذا نزل القرآن الكريم ، وهى من إبداع مفكرى الإسلام ، على الرغم من اتفاقها مع كثير من الأفكار الشائعة عند اليونان والرومان والهنود بهذا الصدد . والراجع أن هذا التوافق دليل على ما يمكن أن تصل إليه وحدة العقل البشرى ، وتشابه استجاباته لتشابه المؤثرات - وسنعرض فيما يلى بعض نماذج من هذه الأفكار .

موقف اليونان والرومان من العلم بالغيب :

إن التشابه بين آراء اليونان والرومان وآراء مفكرى الإسلام ، لا يشمل الأصول وحدها ، بل قد يمتد حتى يتناول الفروع والتفاصيل : فمن ذلك أن الإدراك الغيبى قد أصاب حظه الوافر من تقدير المسلمين ، لأنه ارتبط بوحي الأنبياء وإلهام الأولياء ، فارتفع بذلك على كل علم سواه ، ولكنهم - مع هذا - هاجموا من أساليبه ما جاء صناعة واكتساباً ، لأن علم الغيب خاصة يستأثر به الله ويهبه من شاء من عباده ، وكذلك الحال عند اليونان والرومان : اتصل الإدراك الغيبى بالشعائر المقدسة وأضحى جزءاً من الدين ، واعتبر الاستخفاف به استخفافاً بالآلهة^(١) ، واهتم الذين أبوا التسليم به ، بتوكيد الفصل بينه وبين الدين والآلهة معاً^(٢) . وتدخل أهله فى

(١) قارن Cicero : Divination, i. 4,5 طبعة لوب Loeb الإنجليزية و Garnier

الفرنسية - فى التعليقات -

(2) Ibid : i. 5 & 6 ; ii, 72.

شئون البلاد الداخلية والخارجية ، فكان الأثينيون لا يعقدون اجتماعاً إلا حضره الكهان والرايون ، كما خصص الأسبرطيون عيافاً لنصح الملوك ، وحضور الجلسات التي يعقدها مجلس الشيوخ ، وكان الرومان لا يقدمون على عمل إبان الحرب أو السلام إلا بعد استشارة أهل العرافة^(١) ، وبعض هذا نراه ملحوظاً في قصور الخلفاء والملوك في الإسلام كما سنعرف بعد .

وقد قسموا أساليب التنبؤ إلى صناعية تجيء صناعة واكتساباً (وتشمل العيافة والنجامة وتأويل الخوارق ... الخ) وطبيعية وتشمل حالات التنبؤ إبان الجذب في اليقظة ، والرؤيا الصادقة أثناء النوم^(٢) . وسلم الكثيرون من فلاسفة اليونان والرومان بهذه الأساليب كلها ، فسلم بها سقراط وبعض تلامذته وأفلاطون وأتباعه من أهل الأكاديمية القديمة ، والمشاءون من تلامذة أرسطو ، وفيتاغورس وديمقريطس ، والرواقية الذين أبلوا في الدفاع عن فنونه أحسن بلاء ، ولم يسلم بعض الفلاسفة بأساليب التكهن الصناعي وإن اعتقدوا في صحة التنبؤ الطبيعي (كما فعل جمهرة مفكري الإسلام) وقد كان على هذا دكياركوس Dicaearchus وكراتيپوس Cratipus^(٣) وغيرها . وكان فلاسفتهم في الجملة لا يعتبرون الاستنباط الذي تؤدي إليه مقدمات وأسباب تبرر نتائجهم تنبؤاً بالغيب ، فليس كاهناً من تنبأ استناداً إلى قوانين الطبيعة وأحداثها ، من طبيب أو ملاح أو سياسي أو نحوه^(٤) .

وكما اشتدت حملة الكثيرين من مفكري الإسلام على مدعى القدرة على التنبؤ من الدجالين والمرزقة ، فقد كان هذا هو الحال عند الرومان ، هاجمهم معتنقو التنبؤ

(1) Ibid : i. 43.

(2) Ibid : i. 6, 18 & 33 Seq.

(3) Ibid : i, 3 مع تعليقات طبعة « جارنييه » على الفقرة الثالثة ، وقارن الفقرة الحسین

(4) Ibid : i, 50

الصحيح ومنكروه على السواء^(١). واشتد خطر هؤلاء الدجالين حتى اضطر مجلس الأعيان في عام ٢١٣ ق. م إلى مصادرة المصنفات التي تضمنت نبوءاتهم الرخيصة^(٢) وقد حصروا الإدراك الغيبي في الآلهة، ورأوا أنها تمنحه من تشاء من الكهان والرئين والعرافين أيقاظا، وأصحاب الرؤيا الصادقة نياما، وقد هيمنت الآلهة حتى على أساليب التنبؤ الصنعى...^(٣)

ورد التنبؤ — ولا سيما الطبيعي منه — إلى الآلهة لا إلى النظر العقلي ونحوه، أفضى إلى القول بقدرة بعض المجانين على كشف مجاهله، وحرمان الحكماء من هذه الهبة^(٤) كما ذهب الرواقيون، ولكن أتباع الأكاديمية الجديدة قد رفضوا هذا الرأي^(٥). والثابت عند جمهرة المستشرقين الذين عرضوا للبحث في تاريخ هذه العلوم، أن هذه العلوم قد عرفت في الشرق القديم عند الآشوريين والكلدانيين والمصريين ومن إليهم، ثم امتزجت بما عرف عن اليونانيين والرومان من أفكار، وانتقل التراث الهيليني الذي جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية، كما انتقلت (على وجه الخصوص) الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثثة والغنوصية ونحوها مما يسير الروح العربي، إلى مفكرى الإسلام وأثرت في الكثيرين منهم^(٦).

(1) Ibid. i, 58

(2) Tite-Live XXV, I. وانظر « بوشيه لوكليرك » ح ٤ ص ١٢

(3) Ibid, i, 35-37, 51, 52 & 54. أماعن التنبؤ الطبيعي فانظر الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الأول في شيشرون

(4) Ibid, i, 38.

(5) Ibid, ii, 54. وقد عارض « شارل آبون » في تعليقاته على طبعة « جارنييه » الفرنسية، رأى شيشرون بنظرية مفكرى المسيحية، وهى قريبة الشبه من نظرية المسلمين.

(٦) أبان عن هذا « بوشيه لوكليرك » Bouché - Leclercq و « شيشرون » Cicero والذين اشتركوا في مادة Divination في دائرة معارف الدين والأخلاق وغيرهم ممن فصلوا في بيان هذا الموضوع.

المسحوق بين القرآن وتراث القدماء :

إن معرفة المسلمين بالقرآن أسبق من معرفتهم بفلسفة اليونان والرومان لا محالة، فإذا كان القرآن قد حدد آفاق العلم بالغيب على النحو الذي أسلفناه ، واستوعب آراء المسلمين في هذا الصدد ، فإن الشيء الذي لا يكاد يرتقى إليه الشك - عند من يؤمن بأن القرآن منزل وليس موضوعا - هو أن مرد آراء مفكرى الإسلام إلى القرآن لا إلى اليونان والرومان - بالغاً ما بلغ التشابه الدقيق بين وجهات النظر الإسلامى واليونانى، ومهما ثبت انتقال الهيلينية إلى العالم الإسلامى إلا إذا قيل إن القرآن نفسه قد تأثر بتراث هؤلاء القدماء وإذا نحن أهملنا النظر إلى أسبقية علمهم بالقرآن ، لما كان التشابه وحده مبرراً للجزم بنقل اللاحق عن السابق ، لأن في العقل البشرى وحدة كفيلة بالاهتداء إلى النتائج المتشابهة رغم اختلاف الزمان والمكان معا كما سنعرف في نهاية هذا البحث .

ولكن إذا كان من الإنصاف أن نرد للأسلام اتجاهات مفكرية في فهم الغيب وتحديد آفاقه، فإن من الإنصاف للتراث العربى أن نرد إليه الكثير من عناصر التفسير العقلى لهذا الإدراك عند المسلمين ، فإن الدين الإسلامى لم ينزل ليفسر مثل هذه الظواهر تفسيراً عقلياً منطقياً ، وما من شك في أن مفكرى الإسلام قد أخذوا عن الهيلينيين الكثير من وجوه التفكير النظرى ، لأن روحهم تسير الإسلام إجمالاً وتنساق مع طبيعة أهله ، لا سيما وأن الكثير من عناصره مرجعه إلى الشرق القديم ، وسنعرض لهذا فيما بعد .

ملاحظات على بعض ماسلف :

حسبنا الآن أن نسجل بضع ملاحظات خاطفة :

١ — استئثار الله بالغيب ومنحه لمن يشاء من عباده ، قد أدى إلى استبعاد الصنعي من أساليبه ، وأفضى هذا إلى احتقار النظر العقلي والمنهج التجريبي في الوصول إليه ، وانتهى هذا إلى سلب الإدراك الغيبي عن الفلاسفة والعلماء وإضافته للمجانين والمعتوهين والنيام ومن إليهم من فاقدى العقل ، وارتفعت مرتبة هؤلاء حتى اقتربت من مرتبة النبوة ...!!

٢ — تفسير الفلاسفة للوحي باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، يقوم على جانب شعري خيالي ليس من الميسور على العقل العلمي أن يسلم به .

٣ — تفسير الصوفية للإلهام يرده إلى الصناعة والاكتساب ، فإن تجريد النفس من علائق الحس يجيء بالذكر والجوع والسهر ونحوه من طرق كسبية صناعية . وربما قيل إن التجرد الذي قصدوا إليه قد توافر للكثيرين من أمثال غاندى ، فهل وقع لهم شيء من مدارك الغيب ..؟ على أن من الإنصاف أن نقول إنهم لم يدعوا أن التجرد يؤدي إلى العلم بالغيب في كل حالة .

٤ — ابن خلدون مفكر عبقرى باعتراف المستشرقين ، ولكنه يبدو في هذا الفصل مجرد ناقل يحيط فاقدى العقل بهالة من التقديس ، ويناقض نفسه فيقرر حيناً بأن الغيب لا يجيء صناعة ولا اكتساباً ، ثم يقرر حيناً آخر بأنه يقع لمن يموت بالمجاهدة موتاً صناعياً فيقتل بذلك كافة قواه البدنية بالذكر والجوع ... إلى آخره .

٥ — ربما بدامن عرض اتجاهات الفلاسفة وبعض الصوفية في تعليل الإدراك الغيبي ، أنها لا تتفق مع ظاهر الشرع الذي قرر بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، وهذا

— فيما يلوح — مما حمل رجال الدين والسنين من الصوفية على رفض الاتصال الفلسفي والاتحاد الصوفي معا .

٦ — إن بعض المفكرين قد أنكروا الإدراك الغيبي في مختلف صورته ، ورد ما يبدو من آثاره إلى النفس ، أى أنه ينبع من باطن النفس ولا يفد إليها من خارج ، وربما أيدته في ذلك بعض الدراسات السيكولوجية الحديثة والقديمة معا^(١) . وسنعود إلى هذا بعد قليل^(٢) .

٧ — إن التنبؤ في عرف مفكرى الإسلام غير التنبؤ الذى يسلم به العلم — وهو استنباط نتيجة من مقدمات تبرر استنباطها .

وبعد ، فهذه نظرة مجملة إلى علم الغيب عند مفكرى الإسلام ، وهو على ما رأينا قسمان : طبيعى وصنعى ، فلنقف بابا خاصا لتفصيل الحديث عن كل منهما :

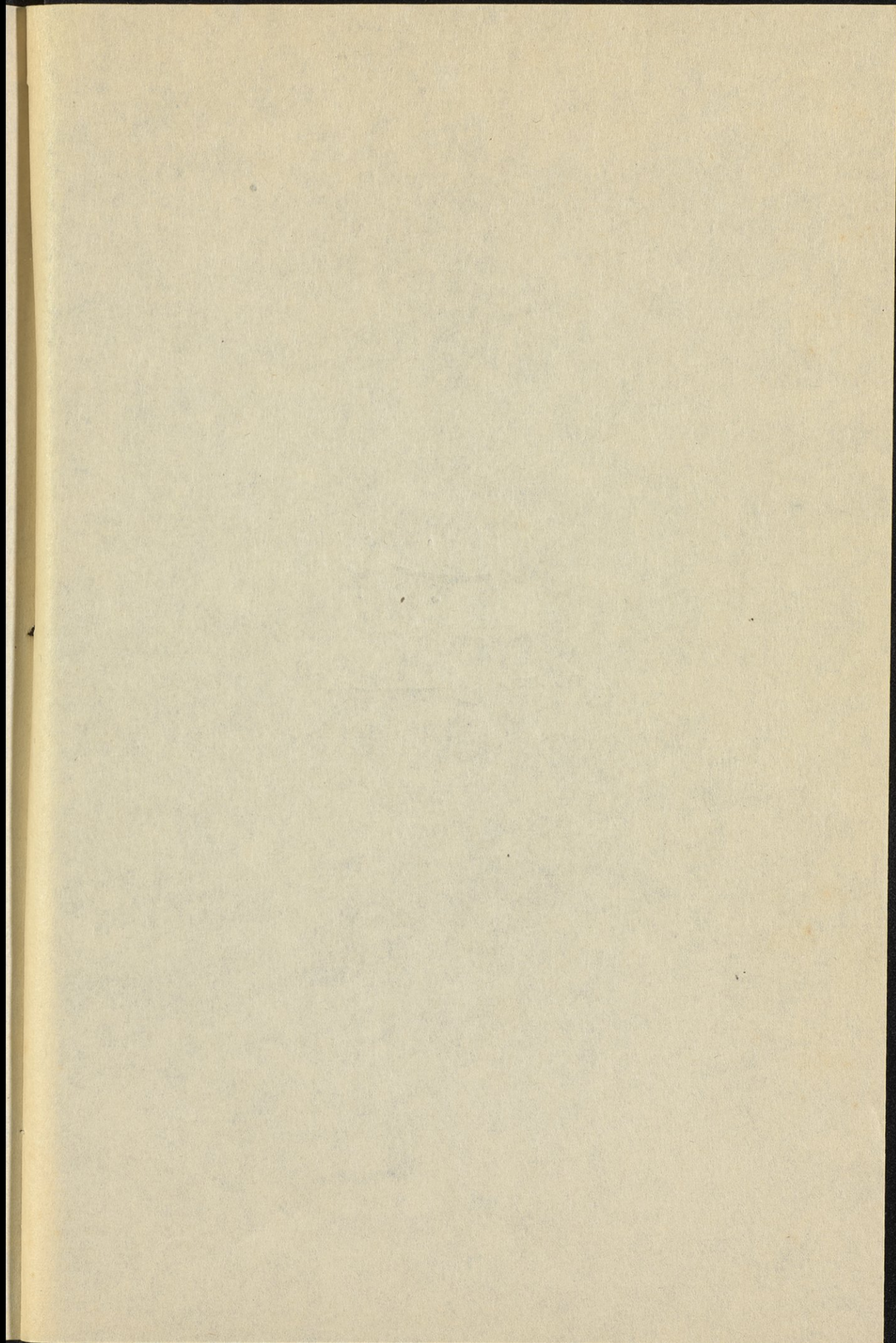
(١) قارن رأى شيشرون أحد زعماء الأكاديمية الجديدة فى الفقرة ٦٧ من الكتاب الثانى فى سفره السالف الذكر .

(٢) فصل « إدراك الغيب عند الأنبياء » .

الباب الثاني

التنبؤ الطبيعى

عند مفكرى الإسلام



إدراك الغيب

عند الأنبياء

العلم النبوي :

النبى عند أهل الكتاب هو الملهم الذى يخبر بشىء من أمور الغيب المقبلة ، ولعل الأصح أن يقال إنه من يتلقى من الله وحياً ، إن أمره بتبليغه كان رسولا^(١) ، وهو عند الأشاعرة من اصطفاه الله من عباده وأرسله لتبليغ رسالته^(٢) ، والرسول قوم اصطفاهم الله من بين البشر وفضلهم بخطابه وفطرم على معرفته ، وجعلهم وسائل اتصال بينه وبين عباده ، ليقوموا بهدایتهم ، ويظهر الله على ألسنتهم الخوارق ، وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر مما لا يعلمه إلا الأنبياء بتعليم من الله^(٣) . ذلك أن العلم

(١) السيد رشيد رضا : الوحي المحمدى ص ٢٥

(٢) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٨ ويقول الأستاذ الإمام فى تعليقاته على شرح الجلال للعقائد العضدية - بعد ذكر تعريفات للنبي - إن النبي يعرف بأنه إنسان فطر على الحق علماً وعملاً ، لا يحتاج فى هذا إلى فكر ونظر ، وإنما يكفيه التعليم الإلهى وقد أخذ على هذا التعريف فى سورة الشيخ مصطفى صبرى فى كتابه السالف الذكر (ص ٤٠ - ٤١) وهامش (ص ١٥٥) لأن التعريف لا يتضمن شيئاً من خصائص النبوة من وحى وملك مرسل وكتاب منزل ومعجزة - ولعل النص على التعليم الإلهى فى تعريف الأستاذ الإمام يخفف من حدة هذا النقد .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٩ ولكن رأى ابن خلدون فى هذا الصدد ، يخالف الاتجاه الحديث ، الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات ، ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل ، متمشية مع سنن الكون ، مسيرة لطبائع الأشياء ، وبهذا يمتنع وصفها بالخوارق - ويقال إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول ، وما عداه شبهة لاحجة ، وقد تصدى لدفع هذا الاتجاه الشيخ مصطفى صبرى ، وهاجم من أجله بعض أعلام المحدثين من رجال الدين وغيرهم فى مصر .

الإنسانى يحصل عن طريقين ، أحدهما طريق الاستدلال والتعلم ويسمى اعتباراً واستبصاراً ، ويختص به العلماء والحكماء ، والآخر يهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري^(١) وقد يسمى بالتعلم الربانى ويكون بطريقين : أولهما إلقاء الوحي فى النفس التى كملت ذاتها وزال عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل والرغبة عن شهوات الدنيا والإقبال على بارئها والتمسك بجود مبدعها ، فيقبل الله بحسن عنايته على هذه النفس ، ويتخذ منها لوحاً كما يتخذ من النفس السكينة قلماً ينقش فيها جميع علومه ، وهذا ما يقع للأنبياء ، أما الوجه الثانى فالإلهام الذى يتوافر للأولياء^(٢) ، وسنعرض للحديث عنه بعد قليل .

ولا يكون العلم الذى يهباً للأنبياء من باب الإلهام أو الظن أو التوهم أو الكهانة أو النجوم أو الرؤيا التى لا يعرف صدقها من بطلانها ، وإنما يكون عن وحي إلهي^(٣) ، وقد قيل إن الوحي شرعاً : إعلام الله لنبي من الأنبياء بحكم شرعى أو نحوه ، ولعل الأصح أن يقال إنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع التيقن بأنه من قبل الله بوساطة أو بغير وساطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه ، أو بغير صوت يبلغ أذنه ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الأخير قد يحصل من الحق بغير وساطة الملك وهو من خواص الولاية^(٤) ، أو هو وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى

(١) معالى الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق : تعليقه على مقال التصوف بدائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية)

(٢) الغزالي ، الرسالة اللدنية ص ٣٩ — ٤٣ — الطبعة الثانية عام ١٣٤٣ هـ

(٣) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ٥ ص ١٧

(٤) ابن العربى ، فصوص الحكم ص ٣١ وما بعدها وانظر مختلف معانى الوحي فى مادة

Wahy للأستاذ « فنسك » A. J. Wensinck فى دائرة المعارف الإسلامية

ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجودان الجوع والعطش والحزن والسرور^(١) ومن هنا قيل في التفرقة بين الأنبياء والأولياء : إن العبد إذا لم يدر كيف حصل له العلم ومن أين حصل ، سمي علمه إلهاماً ونفثاً في الروح ، وكان هذا خاصاً بالأولياء ، فإن اطلع المرء مع هذا العلم على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب ، سمي العلم وحياً وكان خاصاً بالأنبياء ، وإن كان العلم في الحالين يحصل في القلوب بوساطة الملك^(٢) ، وإن قيل مع هذا إن الإلهام ليس مقصوراً على الأولياء ، فإن الوحي الظاهر ثلاثة أصناف : أولها ما ثبت بلسان الملك كالقرآن ، وثانيها ما وضح بإشارة الملك من غير بيان بالكلام ، ويسمى خاطر الملك ، وثالثها الإلهام ، والأنواع الثلاثة حجة مطلقة ، وهذا بخلاف الإلهام ، فإنه لا يكون حجة على غيره^(٣) ، والإلهام بهذا المعنى وارد غيبي من الله المؤثر في كل شيء^(٤) ولكن قوماً من مثبتي النبوات منعوا أن تكون النبوة عن خطاب أو نزول ملك ، لانتهاء المخاطبة الجسمانية عنه تعالى ، لأنه ليس بجسم ، والملائكة لا يهبطون لأنهم من العالم العلوى وهو بسيط ، كما أن العالم السفلى كثيف لا يعلو ، واختلف أصحاب هذا الرأي فيما أدى إلى النبوة عند أهلها ، فقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء بالإلهام لا بالوحي ، وهذا فاسد عند البعض ، لأن الإلهام خفي غامض يدعيه المحق والمبطل . وقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء لأن الله اصطفاهم وأكسبهم ما له من

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٠٨ وما بعدها

(٢) الغزالي في الأحياء ج ٣ ص ١٦ (الطبعة الأولى عام ١٣٥٢ هـ)

(٣) التهانوي ، كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٥٣٣

(٤) المصدر السالف ، ج ٢ ص ١٣٠٨

خواص وأسرار تخالف مجرى الطبائع ، وهذا فاسد أيضا ، لأن خفاءها غير دليل على صدقه ، ثم إنه يكون نبيا عن نفسه لا عن ربه ، وعندئذ يصبح كغيره^(١) .

وعلى هذا فالوحي في معناه العام : إنباء عن أمور مغيبة عن الحس ، يقدر في النفس دون كلفة ولا قصد^(٢) ، ويرى فلاسفة الشريعة أن النبي من اجتمعت له خواص : أولاها أن يكون ذا اطلاع على الغيب الذي طواه الماضي ، أو أخفاه المستقبل ، وليس المراد أن يطلع على كل شيء ، بل حسبه أن يعرف بعضه ، وليس المراد أى بعض كان ، بل المقصود ما لم تجربه العادة دون أن يسبق ذلك تعلم أو تعليم^(٣) . ومن هنا قيل إن الأنبياء يطلعون على الغيب بوحي إلهي لا شك في صدقه ، وقد قيل إن الله يختص برحمته من يشاء من عباده ، فلا يشترط فيهم شرط ولا استعداد ذاتي ، وإن كان المعروف عند المسلمين ، أن النبوة لا تجيء اكتسابا^(٤) ولكن كيف أثبتوا إمكان الوحي ... ؟

إمكان الوحي :

هذه نقطة عاجلناها في الباب السالف^(٥) وحسبنا أن نضيف الآن إلى ما قلناه ، أن بعض النفوس - فيما يرى البعض - فيها استعداد فطري لذلك ، وليس في هذا

(١) الماوردي : أعلام النبوة ص ١٦ - ١٧

(٢) إخوان الصفا : ج ٤ ص ١٤٤

(٣) التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٩

(٤) مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٤٧ وما بعدها (طبعة القاهرة ١٣٦١ هـ)

(٥) عند الحديث على « مذاهب المفكرين في تفسير الوحي والالهام » وكذلك « علة الإدراك الغيبي » في الفصل نفسه ، ثم قارن في الفصل التالي ما ذكرناه عن « إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفي » .

بدع ولا عجب ، إذ أن البديهة تشهد بأن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ،
وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وليس ذلك
لتفاوت المراتب في التعليم وحده ، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل
فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، وهذه المقدمات تسامنا لا محالة إلى القول بأن من
النفوس البشرية ما يكون له من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به ، من محض
الفيض الإلهي ، لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ،
وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله وتحسسه بالدليل
والبرهان^(١) . والملاحظ أن النفوس قسمان : أحدهما يعوزه التعليم ، وثانيهما غني
عنه بفطرته ، وما يحتاج إلى التعليم منه ما يتأثر به وإن طال تبعه ، ومنه ما يصيب العلم
سريعاً في غير إبطاء ، ومن الناس من يستنبط الشيء من ذاته ، دون حاجة إلى معلم ،
وليس ذلك ببدع ، فإن أول معلم لم يسبقه معلم ، وإنما ارتقى إلى العلم بنفسه ، دون
الاستعانة بكائن ما ، ذلك أن النتيجة تخطر بباله « فيتنبه للحد الأوسط ، كأنه الذي في
نفسه من حيث لا يدري ، أو يبتدر للحد الأوسط فتحضر النتيجة ، كمن نظر إلى سقوط
الحجر إلى أسفل ، فخطر له أن الحجر ما كان ليهوى لولا اختلاف الجهتين ثم يخطر له أن
اختلاف الجهتين لا يكون إلا في البعد عن جسم والقرب منه ، ولا يمكن تصور هذا إلا
بمحيط ومركز ، فيستنتج من هذا أن السماء محيطة ، ولا بد من وجودها ، ومثل هذا
غير محال ، وإذا خطر فليس بمحال أن يتبادى إلى آخر المعقولات . » إما في زمان طويل
أو قصير « فمن انكشفت له مثل هذه المعقولات في زمان قصير ، وإن تعلم على
معلم أو كتاب أو نحوه ، كان نبياً ، وكان هذا معجزة له ، وهذا ممكن ومعقول ،

(١) محمد عبده : المصدر السالف ص ١١٠ - ١١١

فإن بين المتعلمين من يسبق إخوانه مع قلة جهده ، وتساوى مدة التعليم عند الجميع ، لأن شدة حذسه وقوة ذكائه ، تمكنه من التفوق عليهم ، وإن قل عنهم اجتهاده ، وإن صح هذا فالزيادة فيه من الممكنات ^(١) .

وفي بعض النفوس قوة لا تشغلها الحواس ، ولا تستوعبها بحيث تستغرقها وتمنعها عن أداء وظيفتها ، وقد تقوى حتى تجمع بين الكتابة والكلام في آن واحد ، ومثل هذه النفوس قد يفتر عنها شغل الحواس ، فتطلع إلى عالم الغيب ، وتكشف بعض مجاهله في سرعة البرق الخاطف ، وهذا النوع من النبوة ، فإن ضعفت الخيلة وعت الذاكرة ما انكشف للنفس ، دون أن تضيف إليه شيئاً أو تحذف منه شيئاً ، فيكون وحياً صريحاً لا يعوزه التأويل ، وإن قويت الخيلة انعكست الآية ، وشابه الحال الرؤيا التي تحتاج إلى تعبير ^(٢) .

تلاقى النبوة والفلسفة :

والعالم الذي يجي عن طريق الوحي ، لا يختلف في نتائجه عن العالم الذي ينتهي إليه النظر العقلي والاستدلال المنطقي ، وإن اختلف الطريق في كل منهما ، ومن هنا تلاقى النبوة والفلسفة ، إذ قيل إن المعرفة التي تجي عن طريق الوحي ، إن قابلها صاحبها بما عند العلماء من حقائق ، ألفاها على اتفاق معها ، لأن العلل والمبادئ واحدة ، فإذا أخبر بها من وصل إليها من أسفل بالفلسف ، اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة ، وبادر الفيلسوف إلى قبول ما يأتي به النبي أو الكاهن ،

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٧ - ٣١٨ - الطبعة الأولى عام ١٣٣١ هـ

(٢) الغزالي : في المصدر السالف ص ٣١٢

لأنهما على اتفاق ، والفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل ، أما الآخر فقد انحط من علٍ ، والمسافة بين السطح والقرار واحدة ، ولكنها بالإضافة إلى من بالقرار تسمى صعوداً ، وبالإضافة إلى من في السطح تسمى هبوطاً ، والأنبياء في هذا كله متفاوتون ، فقد يكشف أحدهم ما يطويه المستقبل بعد قرن ، ويكشف غيره ما تخفيه عشرة قرون تالية^(١) ، كما يتفاوت الفلاسفة في معرفة الحقائق وسبر غورها^(٢) .

نماذج من نبوءات رسول الله :

نبوءات الرسول كثيرة ، فحسبنا أن نتخير القليل منها ، مما ورد في القرآن الكريم :

١ — « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين .. » سورة الروم — قاتلهم الفرس المجوس في أرض العرب ، حتى وصلوا طريق الحجاز وغلبوهم حتى بلغوا المدائن ، ولكن الوحي قد نزل على رسول الله يقول إن هذه الهزيمة ستتحول نصراً ، في بضع سنين ، هي ما بين الثلاث والعشر — الله يعلم السنة واليوم والساعة التي سيقع فيها النصر ، وقد أنبأ رسوله بذلك ، ولكنه لم يأذن في إظهاره لأن الكفار كانوا معاندين ... الخ^(٣)

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١٠٣ — ٤ وانظر في تشابه غاية الدين والفلسفة : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمعالى مصطفى باشا عبد الرازق — ومصادره التي رجع إليها ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ساور الشك بعض المستشرقين من منكرى الوحي الإلهي ، وقد تولى الرد على شبههم السيد رشيد رضا في الوحي المحمدي ص ٩ وما بعدها ومعالى الدكتور هيكل باشا ص ٤٠ — ٤١ من كتابه حياة محمد في طبعته الثانية .

(٣) الرازي : مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٤٦٦ وما بعدها . وقد أورد القاضي أبو الفضل عياض في مخطوط له « شفا بتعريف حقوق المصطفى » — ٢١١٩٩ ب بدار الكتب — أمثلة كثيرة ، بالغ فيها حتى قال إن الرسول قد تنبأ بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة . . . ! انظر من ظهر ورقة ٩٣ — ورقة ٩٦)

٢ — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ... سورة النور آية ٥٥ .

أنبا النبي أصحابه بأن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، سيكونون الخلفاء والغالبين والمالكين ، سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر ويستولون على ملك كسرى وقيصر كما استخلف من قبل زمن داود وسليمان عليهما السلام ، ويمكن لهم دينهم فيؤيده بالنصر والاعتزاز ، ويبدلهم بعد الخوف أمناً ، فيكفل لهم النصر على أعدائهم والأمان من شرهم ... الخ^(١)

٣ — وقد أشرنا إلى أن البعض يقول إن رؤيا الرسول وحى إلهي ، والله تعالى يقول : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ... الآية سورة الفتح آية ٢٧

رأى الرسول أن المؤمنين سيدخلون مكة ويتمون الحج ، ولم يعين وقتاً له ، ولما قص رؤياه على المؤمنين ، ظن أن دخولها سيكون عام الحديبية ، ولكن الله يعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح ، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حاقنا ، فقال تعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ...^(٢)

حسبنا هذه الإشارات الموجزة ، إلى بعض نبوءات الرسول كما وردت في التراث الإسلامي . ولكن لنا ملحوظة ينبغي أن نقف عندها قليلاً :

(١) المصدر السالف ص ٢٨٧ — ٢٨٨ والسيد رشيد رضا في الوحي الحمدي .

(٢) المصدر السالف ج ٧ ص ٣٩٧

الفراية والعلم :

التمس بعض المحدثين من مفكرى الإسلام فى القرآن ، نوعاً غريباً من العلم بالغيب ، فقالوا إن القرآن تنبأ بجميع مخترعات العلم ومكتشفاته ، وكافة ما وصل إليه وما يمكن أن يصل إليه البحث العلمى من أصول .. ! وأسرف أصحاب هذا النزوع إسرافاً ملحوظاً ، وحملوا ألفاظ القرآن فوق ما تطبق ، وكاد بعضهم أن يحول كتاب الله إلى كتاب فى علم الفلك أو الطب أو الطبيعة أو غيرها ... ! وأيد هذا الاتجاه « الكواكبى » ومحمد عبده ، وفريد وجدى ، والدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل وغيرهم من المعاصرين فى مصر على ما يعرف القراء .

والرأى عندنا - مع تقدير وجه الإخلاص عند هؤلاء المفكرين - أن محاولاتهم للبرهنة على أن كل ما يجيئ فى مجال العلم ، متضمن فى نصوص القرآن ، إخراج للدين عن نطاقه ، وإسراف قد يضر ولا يفيد ، لأن حقائق الدين ثابتة لا تتغير ، وحقائق العلم تتطور مع الزمان ، وتتغير بتقدم النظر العقلى ، وترقى منهج البحث العلمى ، فإذا كنا سنربط الدين بالعلم ، كان معنى هذا أن تتغير المعانى التى تحملها آياته ، تبعاً لتغير النظريات التى ينتهى إليها البحث العلمى ، وقد علق أستاذنا الدكتور طه فى مقال ممتع له ، على محاضرة حاول الشيخ محمد بخيت أن يستنبط فيها من نصوص القرآن : كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الليل والنهار ... الخ^(١)

وقال إن الأستاذ « نوردمان » Nordmann قد وضع فى السنين الأخيرة كتاباً

عن مملكة السموات ، انتهى في فصل منه إلى استحالة البرهنة على دوران الأرض بطريقة علمية قاطعة .. ! ثم عقب الدكتور على هذا بقوله : إذا انعقد الإجماع على أن الأرض لا تدور ، كما كان منمقداً على ذلك منذ قرون ، وحين نزل القرآن الكريم ، فأين تذهب جهود العلماء الذين حاولوا هذا النوع من التوفيق .. ؟

بين الدين والعلم في هذا الصدد :

هذه المحاولات ليست جديدة في تاريخ العلاقة بين الدين والعلم ، فشئت في العالم المسيحي ، منذ أخذ رجال الدين أنفسهم بالتوفيق بين نظرية بطليموس وموقف المسيحية من ثبات الأرض ودوران الشمس حولها .. ! فلما استيقظ النظر العقلي ونهض البحث العلمي ، وابتعث كوبرنيكوس + ١٥٤٣ وجاليليو + ١٦٤٢ رأى متأخري الفيشاغورية من أمثال أرسطرخوس + ٣١٠ ق.م في دوران الأرض المزدوج ، ناهضت الكنيسة هذه الدعوة ، وارتكبت فظائعها مع رواد الفكر الحديث ، حتى إذا استقر العلم عند الرأي الأخير ، أخذ رجال الدين يجاهدون في سبيل التوفيق مرة أخرى ، بين هذا الرأي الحديث ونصوص الكتاب المقدس .. ! ولم تزل بعدُ تفاصيل هذه الأحداث وأمثالها ، مثار السخرية عند جمهرة المؤرخين ، فمن الحكمة ألا نزل في خطأ زل فيه غيرنا ، وأن نتخذ من سقطات السابقين عبرة وعظة .

منابع التفكير الإسلامي في الوحي : موقف القرآن الكريم :

من الطبيعي أن أتبع هذه الأفكار السالفة في القرآن ، فإن الدين لا يستقيم بغير النبوة والوحي ، والملاحظ أن تعريف الوحي على النحو الذي أسلفناه ، مأخوذ عن الآية الكريمة التي تضمنت أنواعه الثلاثة : إلقاء المعنى في القلب ، والكلام من

وراء حجاب ، وما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله في صورة ما ، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه علىَّ حكيم ^(١) »

وأما إدراك النبي لعالم الغيب دون تعلم أو تفكير ، فإن هذا مرجعه إلى قول الله لنبيه الكريم ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، أى بغير وساطة ما ، وتشهد بهذا قصة آدم الذى لم يكتسب علماً ما ، والملائكة الذين حصلوا من العلم ما جعلهم أعلم الموجودات طراً ، فلما فاخرته ، قال ، أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ... إلى آخر ما يذكره الغزالي للتدليل على ارتفاع العلم الربانى على العلم الإنسانى ^(٢) . أما إمكان الوحي وتفسيرهم العقلى له ، فقد يكون وليد تفكيرهم ، وربما دخلت هذا عناصر من تراث قديم وصل إليهم ، والملاحظ أن الفارابى الذى شاد نظرية اتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وإدراك الغيب عن طريق هذا الاتصال ، قد استمد الكثير من عناصر هذه النظرية ، من نظرية الفيض أو الصدور عند « أفلوطين » كما صورها الفارابى فى بعض رسائله ^(٣) . وقد جرى على نهجه ابن سينا فى تصوير هذه النظرية ^(٤) .

(١) سورة الشورى آية ٥١

(٢) الغزالي : الرسالة الدنية ص ٤٣ ، ويلاحظ أننا نؤرخ ما يقول ، دون أن نؤيده ، لأنه لا يوثق به كمحدث .

(٣) الفارابى : مقالة فى معانى العقل نشرة الأب يويج وتصويباته .

(٤) قارن ما سنذكره فى تحليل الرؤيا الصادقة ، استناداً إلى إشارات ابن سينا ورسائله فى النبوات ثم انظر ص ١٢٩ - ١٣١ من كتابنا « الأحلام » .

موقف اليونان والرومان من الوحي :

عرف هؤلاء ما يشبه أنواع الوحي الثلاثة التي وردت في القرآن ، فالكلام بحيث يسمع النبي ولا يرى كما وقع لموسى ، قد وقع لسقراط كثيراً ، وكان الصوت كثيراً ما يمنعه من الإقدام على عمل ما ، وإن كان لا يدفعه إلى عمل ما ، وأحداثه في ذلك كثيرة تعيها كتب سيرته^(١) ، ولم يقع هذا لسقراط وحده ... وكما وقع لليونان ، كان يحدث للرومان ، وكثيراً ما كانت تسمع هذه الأصوات المفردة الزاجرة في أخرج الأوقات^(٢) .

وظهور الملك ، وهو ثاني أنواع الوحي ، قد يتجسم في صورة رجل مثلاً ، وقد قيل إن أطياف الآلهة ، كثيراً ما كانت تظهر وكأنها مجسمة في مادة - مع أنها مفارقة لها ، وقد تظهر أحياناً غير متقومة في مادة^(٣) .

أما النوع الثالث ، وهو إلقاء المعاني في النفس دون تعلم ، فقد كان مألوفاً شائعاً ، إذ أوتي البعض ملكة التنبؤ بحيث يستطيع أن يرى ما لا تراه العيون ، ويسمع ما لا تسمع الآذان ، وقد كانت كاهنة دلفي وغيرها من هذا الصنف .

وأشياء القدرة على الإدراك الغيبي ، كانوا يرون في تفسير هذا الوحي ، ما يشبه آراء المسلمين في هذا الصدد ، إذ قالوا إن في باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما - وهم يعزونها إلى الوحي - وبهذه القوة تتمكن النفس من كشف الغيب

(١) قارن شيشرون في الفقرة ٥٤ من الكتاب الأول و « پلوتارك » في حديثه عن شيطان سقراط (قارن تعليق « لويب » على هذه الفقرة) .

(٢) قارن المصدر السالف في الفقرة الخامسة والأربعين .

(٣) قارن المصدر السالف في الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول .

المحجب ، متى أدركها الجذب الإلهي ، أو جردها النوم من علائق الجسد^(١) وقالوا كذلك إن النفوس على خلاف وتفاوت في طبيعتها ، وأنها أقوى ماتكون في الرائيين والعرافين ومن إليهم^(٢) .

وهكذا نلاحظ قيام التشابه بين آراء اليونان والرومان من جهة ، وآراء المسلمين من جهة أخرى ، وإن كان هذا لا يبرر الجزم بنقل أولاء عن هؤلاء ، مادام القرآن قد استوعب بذور آراء المسلمين كلها على وجه التقريب ، وسنعرض لبقية وجوه التقابل بين الفريقين ، عند الكلام على منابع التفكير الإسلامى ، فى إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفى .

(١) المصدر السالف فى الكتاب الثانى فى الفقرة الثامنة والأربعين وال فقرات التى تليها .

(٢) قارن المصدر السالف فى الفقرة السادسة والثلاثين من الكتاب الاول .

إدراك الغيب

عند أهل الكشف الصوفي ومن إليهم

عرف الولاية بالنبوة :

من المتصوفة من رفع الولاية إلى مرتبة النبوة ، ومنهم من فصل بينهما بفروق شكلية ، لا يكاد المرء يلحظها ، ومنهم من آثرها على النبوة ، وخلع على الولي من قدس الصفات مالا يتوافر في الأنبياء ، ولعل تفصيل هذا يمكننا من أن نفهم مدى اطلاع الأولياء على عالم الغيب ..

الولاية دور النبوة :

يرى المعتدلون من الصوفية أن الولاية دون النبوة ، ويصرحون باستئثار الأنبياء بالوحي ، واستئثار الأولياء بالإلهام ، ويقررون بأن الإلهام دون الوحي ، ومن أجل هذا كان الولي دون النبي^(١) والولاية درجة مختصرة من النبوة^(٢) ، ويرون أن الأنبياء يمتازون على الأولياء ، بأنهم يعرفون مصدر العلم الذي يهجم على قلوبهم ، ويتبينون كيفية حصوله ، ويرون الملك الذي يلقي بالعلم إلى نفوسهم^(٣) .

(١) الغزالي : الرسالة الدنية ص ٤٣ ، وردد أقواله ابن خلدون .

(٢) الغزالي : كيمياء السعادة ص ١٤ طبعة عام ١٣٤٣ هـ

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٣ ص ١٦

الولاية صنو النبوة :

ولكن المتطرفين من الصوفية لا يسمون بهذا الرأى فيما يظهر ، بل يرفعون الولاية إلى مرتبة النبوة ، بل يجعلون النبوة دون الولاية ... فهم يقولون إن الولاية صنو النبوة ، لأن من الوحي ما يلقيه الله إلى البشر من غير وساطة ، فيُسمعهم في قلوبهم حديثاً لا يأخذه ولا يصوره خيال ، ولا يعرفون مصدره ولا سببه ، ولكنهم مع هذا يعقلونه ويدركون مابه^(١) بل ليست الولاية في واقع الأمر إلا باطن النبوة^(٢) لأن النبوة ظاهرها الإنباء وباطنها التصرف في النفوس بالحق ، وإجراء الأحكام عليها - وهذا هو الولاية^(٣) ، والنبوة قسمان : نبوة تشريع ونبوة ولاية ، فالنبوة كالرسالة من حيث أنهما قد انقطعتا من وجه ، هو مسمى النبي والرسول ، ولهذا قال النبي : لا رسول بعدي ولا نبي^(٤) ، وقصد بذلك أن ليس بعده مشرع يحلل ويحرم^(٥) ، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بمات الرسول^(٦) ، وبقيت نبوة الولاية ، وهي مجرد إخبارات إلهية يجدها العبد في نفسه ، من وجوه الغيب أو تجليات لا يتعلق بها حكم يحلل شيئاً أو يحرمه ، وتكون بغير روح ملكي^(٧) ، ولا يسمون

(١) ابن عربي : الفتوحات المكية ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ وإن كان هذا لا يتنافى مع رأى الغزالي السالف الذكر .

(٢) ابن عربي : فصوص الحكم ص ٣٩

(٣) التهانوي ، كشف الاصطلاحات ج ٢ ص ١٥٢٨ ، ١٥٢٩

(٤) ابن عربي : الفتوحات ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

(٥) المصدر السالف ص ٧٠ و ٤٩٤

(٦) المصدر السالف : ص ١١٨ وقد ردد رأيه الشعراي في اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٢٢

(٧) ابن عربي : الفتوحات ص ٣٣٦ - ٧

بأن الأولياء لا ينزل عليهم ملك ، ويزعمون بأن الملك الذي ينزل عليهم هو ملك الإلهام ، وقد فصل ابن عربي ضروبه وعاب على الغزالي قوله : إن الملك ينزل على نبي ولا ينزل على ولي ، وردّ خطأ الغزالي في ذلك إلى عدم الذوق ؛ وزعم بأن ملك الإلهام قد نزل عليه ، وإن لم يحمل أمراً ولا نهياً^(١) ، وردد تلامذته رأيه^(٢) مع أن الغزالي فيما يلوح لنا لم ينكر الملك ، وإنما أنكر رؤية الولي له ، إذ قال « فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة »^(٣) ، ويقرر في مكان آخر بأن الاتصال بالله إما أن يكون مباشرة أو بواسطة ملك^(٤) .

الولاية أسمى منه النبوة :

بل إن ابن عربي لم يكتف مع تلامذته بذلك ، بل ضمت آثارهم نصوصاً تنبئ بإيثار الولاية على النبوة ..!!^(٥) فالنبوة تقوم في هذه الدنيا ، أما في الآخرة فإن التشريع ينقطع وتبطل أحكامه ، وهناك يظهر أن الولاية خير من النبوة ..! وقد سمي الله نفسه ولياً ولم يسم نفسه نبياً ، ولله عباد ليسوا بأنبياء ، ولكن النبيين يغبطونهم بمقامهم ، فهم بغير أتباع لفنائهم في الدعاء لله ، فإذا حل يوم البعث لم يدر كههم الفرع على أنفسهم أو أمهم ، كما هو الحال في أنبياء التشريع^(٦) ، وليس ينبغي أن يقال للولي إنه وارث ، لأنه لا يرث النبوة عن نبي ، ولكن الحق يأخذها

(١) المصدر السالف : ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٩

(٢) الشعراني ، في اليواقيت ج ١ ص ٧٤ - ٧٦ طبع المطبعة الميمنية ١٣١٧ هـ

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٣ ص ١٦

(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٦٢

(٥) ينبغي أن ننص في هذا الصدد ، على أن في كتب ابن عربي والشعراني نصوصاً كثيرة أخرى ، تنص صراحة على أن الولاية في كل صورها أدنى من النبوة .

(٦) الشعراني : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٨٠ ، وابن العربي في الفتوحات ص ١٦٥

أولاً ثم يردّها للولى ، ليكون ذلك أتم وأكمل فى حق الأولياء ، إذ يأخذون علمهم عن الحى الذى لا يموت ، ولا يأخذونه ميتاً عن ميت^(١) .

إلى هذا ذهب المتطرفون من المتصوفة ، فى بعض ماضمت آثارهم من آراء ، وإن كانوا - فيما يلوح - يخشون الاتهام بالزندقة ، ويرهبون مغيبة التصريح بهذه الآراء ، فيقررون فى مواضع أخرى ما ينقض دعواهم ، ويصرحون بأن الولاية بالغاً ما بلغت ، إنما تستمد من النبوة نورها ، ولا تلحق نهايتها بداية النبوة أبداً^(٢) .

هذه هى علاقة الولاية بالنبوة عند أهل التصوف ، ومنها نرى أنهم رغم تفاوتهم فى تقدير الولاية ، فهم على اتفاق فى ربطها بالنبوة ، وتقرير العلم الذى يجىء أهلها إلهاماً وكشفاً ، دون نظر عقلى أو استدلال منطقى .

الكشف عند الصوفية^(٣) :

الكشف اصطلاحاً : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية والأمور الحقيقية ، وهو صورى ومعنوى ، والأول يقع فى عالم المثال من طريق الحواس الخمس ، عن طريق المشاهدة أو السماع كما وقع للنبي ، حين كان يسمع الوحي كلاماً أو كصلصلة الجرس ، أو على سبيل الاستشفاف وهو التنسم بالنفحات الإلهية ، والتنشق لفتوحات الربوبية ، أو على طريق الذوق ... وأما الكشف الصورى فقد يتصل بالأمور الدنيوية ، فيسمى رهبانية ، لاطلاع أهله على الحوادث الدنيوية بحسب

(١) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٣٥ ويردد الشعرانى أقواله

(٢) الشعرانى : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٦٤

(٣) قارن « إمكان الوحي » فى الفصل السالف ، و « علة الإدراك الغيبى » و « مذاهب المفكرين فى تفسير الوحي » فى الباب الأول من هذا الكتاب .

رياضتهم ومجاهداتهم ، وهذا استدراج ومكر بالعبد ، ولعلما تقع هذه المكاشفات مجردة من الاطلاع على المعاني الغيبية . وأما الكشف المعنوي المتجرد من صور الحقائق ، الحاصل من تجليات الاسم العليم والحكيم ، فهو ظهور المعاني الغيبية والحقائق العينية ، وهو أيضاً مراتب كالحُدس والنور القدسي ، وقد فصل ابن عربي في شرح هذا كله (١) .

وقد جرى الصوفية على القول بالعلم الذي يجيء عن طريق الكشف ، في مقابل العلم الذي يجيء عن طريق البحث والبرهان ، ويشبه الكشف عندهم « العيان » و « الذوق » و « الحُدس » و « الإلهام » وهي ألفاظ شائعة في كتب الصوفية من الغزالي والسهروردي والشيرازي وغيرهم . وهم يرون أن النفس إذا انجذبت تجافت عن دار الغرور ، وأقبلت على السلوك إلى الله - كما يقول الغزالي ، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجذب عند الكلام على منابع التفكير الإسلامي .

عوائق الكشف الصوفي :

وإذا كان الله تعالى يصطفى الرسالة والنبوة من شاء من عباده ، دون شرط أو استعداد ذاتي على نحو ما عرفنا من قبل ، فإن الثابت عند مفكرى الإسلام ، أن النفس بطبيعتها مهيأة لقبول الوحي والإلهام معا ، معدة لارتياح مجاهل الغيب المحجب ، متى تخلصت من علائق البدن في يقظة أو منام ، لأن على القلب غشاوة من شهوات الجسم ومشاكل الدنيا ، وإنما تنقشع عن عيون الأنبياء والأولياء الممتازين ، بهذا تحصل المعلومات بإلهام إلهي لبعض القلوب على سبيل المبادأة أو المكاشفة ، وأقصى

(١) ابن العربي : فصوص الحكم ص ٢٨ - ٣١ (شرح الشيرازي)

الرتب في ذلك رتبة النبي الذي تنكشف له الحقائق دون تكلف أو اكتساب^(١) ، وما منعت أنوار العلوم عن القلوب ، لأن الله ضنين بها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولكنها محتجبة لخبط القلب وكدره ومشاغله الدنيوية ، والقلوب التي تمتلئ بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، لأن القلوب كالأواني إن امتلأت بالماء لم يدخلها الهواء^(٢) ، وليس هذا وحده الذي يعوق الكشف ، فإن القلب محل العلم ، وهو بالإضافة إلى الحقائق كالمرآة بالإضافة إلى صور الأشياء ، فقد يمنع ظهور الصور فيها نقصان صورة المرآة أو صدوها وكدورتها أو عدم مواجهة الصورة للمرآة ، أو لوجود حجاب بينهما ، أو للجهل بجهة الصورة ، وكذلك الحال في القلب ، لا تنكشف فيه الحقائق لنقصانه - كقلب الطفل ، أو لما يعلوه من شهوات تطفئ إشراقه ، أو انصرافه إلى غير الله ، أو قيام حجاب من اعتقادات تقليدية جمدت في النفس ، وصارت حجابا يمنع من كشف شيء يخالف ما تلقاه تقليدا ، وقد حجب هذا أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، وجل الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأراضين ، وقد يمنع الكشف جهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب^(٣) .

طريقة الكشف عند الصوفية :

هذه هي عوائق الكشف الصوفي ، فإذا اتقينا شرها ، أمكننا أن نبلغ مرتبة العرفان التي يبلغها الأولياء ، لأن الأصل في الولي أنه الواصل إلى مرتبة العرفان ، عن الطريق الموصلة إلى سبيل تلك المرتبة في عرف الصوفية ، والواصل إليها تنكشف

(١) الغزالي : الإحياء ج ٣ ص ٧

(٢) المصدر السالف ص ٨

(٣) الغزالي : الإحياء ج ٣ ص ١١ و ١٢

له الحجب ، ويشهد من علم الله ما لا يشهد سواه^(١) وهذا أمر ميسور ، لأن النفس البشرية بطبيعتها مهياة لقبول الإلهام ، كما هي معدة لقبول الوحي ، وتكون أعظم استعدادا لذلك كلما كانت أصفى جوهرها وأذكى فهمها ، فهذا تكون أخلاق المرء وسجاياه ، أدنى إلى أخلاق الكرام وأشبه ، ويكون مذهبه واعتقاده أشد تحققا باعتقاد الأنبياء ومذهب الحكماء ، وتكون أعماله وسيرته أشد شبها بأفعال الملائكة وسيرتها ، بهذا يسهل فهم النفس لوحى الأنبياء وإلهام الملائكة . ولما كان هذا كله يتفاوت قوة وضعفا ، فقد تفاوتت النفوس بين الأنبياء والصديقين والمؤمنين الأبرار ، وهكذا تتفاوت النفوس فى مراتب النبيل ، وبالتالى فى الاستعداد لقبول الوحي والإلهام ، والاطلاع على خفايا الغيب المحجب ، وطريق ذلك أن يصلح المرء ما فسد من أخلاقه فى صباه ، وأن يلتزم السلوك العادل فى تصرفاته ، ثم ينظر فى العلوم الحسية حتى يحسنها ، ثم فى الأمور العقلية حتى يجيدها ، ويستغلها فى طرد الفاسد من آرائه ، بهذا يرقى إلى العوالم السمائية ، فما يمنع النفس عن الارتقاء إلى ملكوت السماء ، إلا نوازع الجسد وتعلق النفس به ، واستعباد شهواته لها^(٢) فإن المرء الذى يدين بطاعة الله علما وعملا ، متى فاضت نفسه ، نجت من بحر الهوى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتفعت إلى عالم الأفلاك ، وأضحت ملكا بالفعل ، والملائكة لا يسلّمون إلا على أبناء جنسهم ، ولا يخاطبون إلا من شاكلهم ، شأنهم فى هذا شأن الإنسان الذى لا يتبادل التحية مع حيوان أو جماد . وإذا كان الله يذكر

(١) القشيري فى رسالته ومصطفى باشا عبد الرزاق فى تعليقه على مقال التصوف للأستاذ ماسينيون بدائرة المعارف الاسلامية - وقارن مختلف معانى الولى ، فى مادة Wali للبارون « كارادى فو » Carra de Vaux فى دائرة المعارف الاسلامية

(٢) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٧١ - ١٧٤

سلام الملائكة على أهل الجنة ، فإن ذلك على سبيل التكريم لهم ، ونفوس المؤمنين العارفين بالله الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ونعيمها ، ليست إلا ملائكة بالقوة إن فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل « تحن إلى مخلفيها من الأولاد وقراباتها وتلامذتها ، وأهل دينها ومذهبها الصالحين منهم » وبذلك يكون الاتصال بين الملائكة وكرام النفوس ، وبهذا ينكشف الغيب المحجب^(١) .

ولكن لندع الآن الصوفية أنفسهم يتحدثون بلغتهم ، وهم وإن اختلفت وجهات نظرهم في بعض الاتجاهات ، متفقون في تصوير الفكرة ، ولعل أظهر مدارسهم في هذا الصدد، مدرسة التصوف السني التي أسسها الغزالي المتوفى سنة ١١١١ م ، ثم المدرسة الإشراقية التي أنشأها السهروردي المتوفى سنة ١١٩١ م ، فلنعرض موقف المدرستين كما يتمثل في زعيم كل منهما :

الكشف عند أهل التصوف السني :

بدأ التصوف الإسلامي عمليا ، يتمثل في العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا ... إلى آخر ما يقوله ابن خلدون ، ثم أدركته العناية بالأبحاث العقلية ، وتسالت إليه الأنظار الفلسفية في المعرفة والوجود ، ولكن أهل السنة قد تنكروا لهذا النوع من التصوف الفلسفي ، وضاقوا بالنظريات الفلسفية الجامحة ، وتصدى الأشاعرة لإنكار هذا الجرح ، وانتصر لمثلهم « الغزالي » حجة الإسلام ، وإن أبقى على التصوف الذي يسير التعاليم الدينية ، ويتمشى مع روح السفة ، وبهذا آثر العمل على النظر ، وغلب التعبد على التأمل ، ورجح الاهتمام

(١) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ١٦٧

بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والحرمان ونحوه^(١) ،
وجعل الايمان - لا التفلسف - طريقاً إلى الله ، ورأى أن القلب لا العقل هو الدراك
للحقيقة ، وهاجم علماء الكلام والفلاسفة معاً ، وإذا كان قد قرر قيام الحدس
والفيض والإلهام أداة لإدراك العالم الباطن ، فقد صرح مراراً بأن هذا لا يجيء
باتحاد أو حلول أو نحوه ، إذ فرق بين العلم الذي يحصله العلماء والحكمة بالتعلم
والاستدلال ، وبين العلم الذي يهجم على قلب النبي أو الولي دون نظر أو تعلم ،
ورأى أن الطريقة التي تنكشف بها الحجب عن أعين القلوب ، ليتجلى ما هو مسطور
في اللوح المحفوظ ، هي التعبد وليست التأمل ، وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف
له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت ،
وأن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، ولهذا لم يحرصوا على
دراسة العلم ، واستيعاب ما صنفه المصنفون ، بل اعتبروا الطريق قائماً في تقديم المجاهدة
ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله ، وقد
انكشف الأمر للأنبياء والأولياء ، وفاض النور على صدورهم ، لا بالتعلم والدراسة
وتأليف الكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من
شواغلها^(٢) فإن اكتساب العلم اللدني يكون بارتفاع حجاب الحس المرسل بين
القلب واللوح ، فإذا كان القلب فارغاً من علائق الحواس طالع جواهر الملكوت^(٣) ،
والطاقة التي يطل منها المرء على عالم الملكوت ، قد تنفتح إبان النوم في رؤيا صادقة ،

(١) انظر كتابنا « الشعرائي - إمام التصوف في عصره » ص ٧ - ٨ و ١٠٧ - ١٠٨
(طبعة أولى ٩٤٥)

(٢) الغزالي : الإحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالي : كيمياء السعادة ص ١٥ والإحياء ج ٤ ص ٤٣٩

وقد تنفتح أثناء اليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة ، وتجرد من الشهوات وقبيح الأخلاق ، واعتزل الناس وعطل طرق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه ، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت ، وقال بقلبه لا بلسانه : الله الله مواظباً على هذا ، عندئذ تنمحي الكلمة بحروفها ويبقى معناها مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه كأنه ملازم له لا يفارقه ، وعندئذ يتعرض لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى بعد هذا إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة بهذه الطريق ، كما فتحتها على أنبيائه وأوليائه ، وعندئذ تلمع لوامع الحق في قلبه ، وتنفتح الطاقة ويبصر في اليقظة ما يبصره في النوم ، وينكشف له ملكوت السموات والأراضين ، وتشهد بهذا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهذا هو طريق الصوفية ، وهو درجة قد اختصرت من طريق النبوة ، وهي لا تقع بالتعليم ، بل بالذوق وحده ... وهكذا ترجع الطريق إلى تطهير محض وتصفية وخلاء ثم استعداد وانتظار^(١) .

والواصلون إلى مرتبة العلم اللدني في غنى عن مشقة التحصيل وتعب التعليم ، فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً^(٢) .

وبهذا يكون الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وعلوم العلماء والحكماء ، أن الأولى تجيء من داخل القلب ، من الباب الذي ينفتح إلى عالم الملكوت ، أما علم الحكمة فيجىء من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ... ويمضي الغزالي في تأييد هذا الاتجاه ، مدلاً على صحة رأيه بشواهد يستقيها من الشرع^(٣) ...

(١) الغزالي : من نصوص له في كيمياء السعادة ص ١٦ و ١٧ والإحياء ج ٣ ص ١٦ و ١٧

(٢) الغزالي : الرسالة الدنية ص ٤٥

(٣) الإحياء ج ٣ ص ١٨ وما بعدها .

والرأى عنده أن التعلم بغير معلم ممكن لا محالة ، فإن جوهر الإنسان في أصل الفطرة خال ساذج ، لا خبر معه من عوالم الله ، ووسيلة إدراكها هي الحواس^(١) ، والعلم اليقيني لا يدرك بهذه الأدوات ، ويستعرض الغزالي العلم اليقيني الذي ينبغي طلبه ووسائل إدراكه ، ومدى الاطمئنان إلى قدرة وسائل الإدراك على كشف الحقائق ، حتى إذا انتهى إلى الشك في الحواس ثم في العقل ، قال إن من الممكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحال ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة هي ما يدعى الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لا توافق المعقولات - وهكذا غمر الشك الغزالي حتى تحرر منه « لا ينظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قدّفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » وهذا النور ينبجس من النور الإلهي في بعض الأحيان ، ولهذا وجب الترصد له والجد في طلبه ، فليس من المجدي أن تحاول إدراك الأوليات العقلية والبدهيّات ، بنظم كلام وترتيب أدلة ، فهي حاضرة في الذهن والحاضر إذا طُلب فقد « وعلى هذا فإن إدراكها يكون بالحدس الباطني ، أو بالنور الذي يقذفه الله في الصدور^(٢) .

وقد كان الغزالي بهذه الدعوة الجريئة ، أكبر من مهّدوا للاتجاه الذي عرف

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١٣٦ - ١٣٧ (الطبعة الثانية لمكتب النشر العربي بدمشق) حيث يستعرض الحواس بحسب خلقها في الطفل محددا وظيفة كل منها على حدة .

(٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ص ٦٥ - ٧٥

بعده عند الصوفية في عصور الاضمحلال ، وهو الذى يجهر أصحابه بمناهضة التعلم ومقاومة النظر العقلى ، ويصرحون بأن الأمية تجعل صاحبها أكثر استعداداً لتلقى الإلهام ، وأن العلم المكتسب يعوق التهيؤ لاستقبال العلم اللدنى .. !

بل إنا نرى عند بعض من أعقبوه من الصوفية المتفلسفين نصوصاً تشبه النصوص التى أسلفناها عن الغزالى ، فابن عربى يصرح بأن العلم الذى لا يحصل إلا عن عمل وتقوى وسلوك ، هو المعرفة اليقينية الحقة ، لأنه يكون عن كشف محقق لا تدخله الشبه ، أما العلم الذى يحصل عن نظر فكرى ، فإنه لا يسلم من الشبه أبداً^(١) بل لقد كان ابن عربى يأخذ على الفقهاء فى عصره ، أنهم يشتغلون بالجدال « ينوون بذلك تلقيح خواطرم »^(٢) وما نظن أن هذه النعمة كانت قبل الغزالى واضحة سافرة على هذا النحو .

ومن هذا نرى أن الغزالى قد أقر الإلهام والحدس أداة للعلم اللدنى ، ورفض أن يجى هذا عن تعلم واكتساب ، أو باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال كما ذهب الفلاسفة أو باتحاد الناسوت باللاهوت كما ذهب بعض الصوفية .

الكشف عند أهل التصوف الأسرائى :

يعبر السهروردى عن مذهبهم فيقول « إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت (أى عالم المجردات والمعقولات والكيالات ، وهو عالم الغيب أو العالم العلوى أو السماوى) وأن ما يشغلها عن عالمها ، هذه القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس

(١) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٩٣

(٢) المصدر السالف ص ٤٥٩

بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحيانا إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس ، وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منهم المغيبات في نومها ويقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش...^(١) وهكذا يتصل المرء بالنفوس الفلكية ويدرك شتى المعلومات والمعارف في عالم الغيب ، وتلك هى غاية التصوف التى يسعى إلى تحقيقها الإشرافيون ، وهى شبيهة بغاية الفيلسوف فى السعادة التى تتحقق عند أهل الفلسفة الإسلامية ، من الاتصال بالعقل الفعال كما أشرنا من قبل .

موقف الفقهاء من الصوفية :

هذه النتيجة التى انتهى إليها الصوفية فى تقرير الكشف عن عالم الغيب ، لا يرفض التسليم بها خصومهم من الفقهاء ، ولقد صدق الأستاذ ماسينيون حين قال إن أهل السنة لم يقولوا فى الواقع بمروق المعتدلين من الصوفية ، فقد دأب أهل السنة على الاهتداء فى معاملاتهم وعباداتهم برسائل معروفة لأهل التصوف ، وكان فقهاؤهم الذين اشتدوا فى الخط من شأن المتصوفة ، أمثال ابن الجوزى (٥٩٧هـ - ١٢٠٠م) وابن تيمية (٧٢٨هـ - ١٣٢٧م) وابن القيم (٧٥١هـ - ١٣٥٦م) يقدرون الغزالى ويعتبرونه حجة فى مسائل الأخلاق ، وقد صب المتأخرون من فقهاء أهل السنة غضبهم على مريدى ابن العربى لقولهم بالوحدة^(٢) ولنشر إلى موقف

(١) السهروردى ، هياكل النور ص ٤٣ و ٤٤

(٢) ماسينيون : مادة تصوف فى دائرة المعارف الإسلامية ، وإن كان ابن تيمية قد هاجم الغزالى من جراء آرائه الفلسفية ، المنبثقة فى « المنقذ » و « الأحياء » الذى تضمن الكثير من الأحاديث النبوية التى لا يوثق فيها - وحمل عليه من جراء خلطه التصوف بالفلسفة وانظر مادة ابن تيمية فى دائرة المعارف الإسلامية .

ابن تيمية بالذات ، فهو حنبلي متطرف من أهل الظاهر فبما لاحظ جولته تسيهر في كتابه عن عقيدة الإسلام وشريعته ، وقد فقه الحديث حتى قيل إن الحديث الذي لا يسلم بصحته ابن تيمية لا يعتبر صحيحاً ، واشتدت حملاته على المتطرفين من الصوفية ، وأفتى بهرطقة القائلين بنظرية الاتحاد ، وكان مصيره السجن ، وكانت آراؤه أساساً للوهابية والسنوسية بعد ، وكان يحمل على ابن عربي ومن سلك مسلكه في فهم الولاية ، وإيثارها على النبوة^(١) ، فهو يشرح معنى الوحي في رسالة له ، ثم يعقب قائلاً : والوحي بالمعنى السالف للمؤمنين جميعاً ، ثم يستشهد بالآيات القرآنية على صحة ما يقول^(٢) ، وليس في هذا الموقف مثار لدهشة ، إذ كان ابن تيمية يرى أن صريح العقل لا يخالف صريح النقل بحال ، ووضع لتأييد هذا الرأي كتابه « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول »^(٣) . ويلوح لنا - مع هذا كله - أنه كان يسلم بالإلهام الصحيح عند بعض أهل الذوق والمكاشفة ، ويستشهد على صحة تسليمه ، بالموثوق به من الأحاديث النبوية ، حتى إذا فرغ من استشهاده عقب قائلاً (والمقصود أن هذا الجنس واقع)^(٤) ولكن معالي أستاذنا مصطفى باشا

(١) ابن تيمية : رسالة الفرقان ص ١٤٧ و ٢٠ و ٢١ وهو يقول في رسالته عن حقيقة مذهب الاتحاديين ، إن مقالة ابن عربي مع كونها كفرًا ، فإن صاحبها أقرب أصحاب الاتحاد ونحوه إلى الإسلام ، لما يوجد في كلامها من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد نبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه . انظر ص ١٢٢ من فيلسوف العرب .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٣) معالي مصطفى باشا عبد الرازق : « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » ص ١٢٠ وهو يستند إلى استشهاده رائيين ، أما الكتاب المشار إليه في صلب الكلام فطبوع على هامش منهاج السنة النبوية (مطبعة بولاق ١٣٢١ هـ)

(٤) رسالة الفرقان ص ٥١ - ٥٤

عبد الرزاق ، يقول فى بحثه الشائق عن ابن تيمية « وليس يرى للمعرفة طريقا غير الوحي والعقل ، أما الكشف الصوفى فهو ينكره ويرده بالدليل العقلى وبالدليل السمعى معا » (١) .

وهكذا يسلم ألد خصوم الصوفية من أهل السنة الحنابلة - فيما يلوح - بإمكان الكشف الصوفى الذى ييسر لأهله معرفة الغيب المحجب .

أشباه الصوفية من مدركى الغيب

إذا كان الاطلاع على عالم الغيب ، يقع بعد انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس من علائق البدن ، والانشغال عن التفكير العقلى ، فقد يتوافر هذا دون سلوك هذه الطريق الوعرة ، التى يرسمها أهل التصوف لبلوغ هذه الغاية ، ومن أجل هذا كان لا بد لهم - تمشياً مع منطقهم - من التسليم باطلاع كل من يتوافر له هذه الصفات على عالم الغيب ، فقالوا - أو قال بعضهم - بقدره صنف من المجانين والمعتوهين من مريدى الصوفية والمرضى والقتلى على الكشف الغيبى ، وقد قرر هذا رجل من أنضج مفكرى الإسلام عقلاً وأعظمهم تفكيراً - هو ابن خلدون - وسبقه إلى بعض ما قال رجل عرف بالاطلاع الواسع والتفكير الغلاب ، هو الغزالى الذى ينقل هذا رأى عن الفلاسفة .

إدراك الغيب عند المجانين والمصروعين :

تكون نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم فى أغلب الأحوال ،

(١) كتاب معاليه السالف ص ١٢١ (طبعة الجمعية الفلسفية ١٩٤٥)

ولضعف الروح الحيوانى فيها ، وبذلك تكون غير مستغرقة فى الحواس ولا منصرفة إلى التفكير فى نقصها^(١) أو يغلب على مزاج هؤلاء المجانين ومن يشبههم من المصروعين ، اليُبْس والحرارة حتى يصرفه بغلبة السواد عن موارد الحواس ، فيكون صاحبه مع فتح العينين كالمبهوت الغائب الغافل عما يرى ويسمع ، وذلك لضعف خروج الروح إلى الظاهر ، ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شىء من الغيب ، فيجرب على لسانه وهو فيما يشبه الذهول^(٢) ، ولكن ربما زاحم النفس على التعلق بالبدن روحانية أخرى تتشبث به ، وتضعف هذه عن ما نعتها فينشأ عن هذا ما نراه من تحبط ، ويختلط الحق بالباطل ، لأن اتصالهم بعالم نفسه لا يتم ، وإن فقدوا الحس بغير الاستعانة بالتصورات الأجنبية التى يحيك الخيال خيوطها^(٣) .

إدراك الغيب عند المتوهمين منه مريدى الصوفية :

وأولئك أشبه بالمجانين منهم بالعقلاء ، ومع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وقد شهد بهذا من فهم عنهم من أهل الذوق ، ولا تكليف عليهم فليسوا مقيدين بشىء ، ومن أجل هذا أنكر بعض الفقهاء أنهم على شىء من المقامات ، لأن الولاية فى عرفهم لا تجبىء بغير عبادة ، ولكن فضل الله يؤتیه من يشاء بغير عبادة أو نحوها ، ومن أجل هذا وقعت لهم العجائب فى مجال الإخبار عن الغيب . . . !

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٣ .

(٢) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٢ و ٣١٣ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٤ .

والفرق بين هؤلاء البهاليل المعتوهين وبين المجانين حقاً ، أنهم لم يفقدوا نفوسهم الناطقة ، ولكنهم فقدوا العقل الذى يناف بالتكليف ، ويعرف المرء به وجوه معاشه واستقامة منزله ، ومن فقد هذا فليس بفاقد نفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته ، وأظهر ما يميزهم من المجانين أنهم لا يكفون عن الذكر والعبادة ، وإن وقع منهم هذا على غير وجهه الشرعى لسقوط التكليف عنهم ، ويختلفون عن البله منذ نشأتهم ، ولا يعرض لهم الجنون فى مراحل العمر لعوارض بدنية طبيعية ، وهم يكثرون من التصرف فى الناس بالخير والشر ، لأنهم لا يتوقفون على إذن لسقوط التكليف عنهم ، وليس المجانين على شىء من هذا كله — فيما يرى ابن خلدون^(١) .

ومن أجل هذا يقول « لين » Lane فى معرض حديثه عن المصريين ، إن المعتوه idiot أو الأبله fool يعتبر فى عرف العامة كائنًا عقله فى السماء ، وجزؤه الكثيف — جسمه — يعيش بين عامة الناس ، ومن ثم يعتبر حبيب الله — أى ولياً^(٢) .

إدراك الغيب عند المرضى والمشرفين على الموت :

يرى فريق من أهل البحث ، أن بعض معقولات المصابين بأمراض خاصة ، تتمثل فى خيالهم ، وتصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع بل يجال ويصارع ، ولا شىء من ذلك فى مجال الحس^(٣) ، ويلاحظ ابن سينا فى إشارات أن بعض الممرورين والمرضى ، يرى صوراً لا تتصل بإحساساتهم الخارجة

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ و ٩٧

(٢) E. w. Lane, Modern Egyptians p. 234.

(٣) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١١٢ لعله يقصد ما يعرف فى علم النفس بالأوهام

في كثير ولا قليل ، ورد هذا إلى الخيلة باعتبارها مصدر الصور الباطنة^(١) . وثبت فيما يقولون بتجارب الساديين من الأطباء ، أن بعض هؤلاء المرضى يخبر بالمغيبات وبالأمر قبل وقوعها فيصدق ، والحوادث في هذا الصدد تثير العجب^(٢) .

فأما القتل فإنهم حين تفارقهم رؤوسهم وأبدانهم ، يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب ، ويقال إن بعض الجبابة الظلمة ، قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلامهم إبان قتلهم ، عواقب أمورهم في أنفسهم ، فأنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة ، وقيل إن الآدمي إذا أقام في دن مملوء بدهن السمسم أربعين يوما ، يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى إلا عروق رأسه ، وخرج من ذلك الدهن وجف عليه الهواء ، فإنه يجيب عن كل ما يسأل عنه من عواقب الأمور خاصة وعامة ، ورغم أن هذا من أفعال مناكير السحرة ، إلا أنه يكشف لنا عن عجائب العالم الإنساني ، ومن ذلك ما نراه عند من يحاولون بالمجاهدة أن يموتوا موتاً صنعياً ، فيعملون على قتل جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلوثت بها النفس ، ثم تغذيتها لتزداد قوة ، ويقع هذا بجمع الفكر وكثرة الجوع ، والمعروف على سبيل اليقين أن الموت متى نزل بالبدن ، ذهب الحس وزال حجاب به ، واطلعت النفس على ذاتها وعالمها ، فهم لهذا يحاولون أن يحصلوا على هذا بالاكتساب ، ليقع قبل الموت ما يقع بعده ، وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب^(٣) وليس عجيباً أن يؤدي الموت إلى كشف الغيب ، فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى

(١) ابن سينا في إشارات ولعله نقلها عن أرسطو - أنظر الفقرة الثانية والخمسين من الكتاب الأول في العلم بالغيب لمؤلفه شيشرون -

(٢) قارن رشيد رضا في هامش له على رسالة التوحيد ص ١١٣

(٣) ابن خلدون في المقدمة ص ٩٥

بمعينه الظاهرة ، بل يرى بالعين التي خلقت في كل قلب ، وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات^(١) ، وبين القلب واللوح المحفوظ الذي نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة ، يقوم حجاب قد ينكشف في المنام أو اليقظة ، ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب ، إنما يكون بالموت^(٢) ، فالقلب إن مات بموت صاحبه ، لم يبق ثمة خيال ولا حواس ، فيصير بغير وهم ولا خيال ، فتنتفتح الطاقة التي يطل منها المرء على عالم الملكوت^(٣) .

منابع الكشف الصوفي في التراث القديم^(٤) :

اختلف الذين حاولوا تأريخ التصوف الإسلامي - مستشرقين وشرقيين - في المنابع التي صدر عنها^(٥) ، وحسبنا أن نتحدث عن المنابع التي صدر عنها التصوف في مرحلة من مراحل تاريخه ، هي التي كان فيها أداة إلى الكشف الغيبي : يستعرض معالي مصطفى باشا عبد الرازق أطوار التصوف ومراحلها فيقول : إن أولها أنه كان طريقاً من طرق العبادة يعبر عن معنى الكمال الديني بالتمسك بالشرع والزهد في الدنيا ، عند ما أخذ الناس في مخالطة الزخارف الدنيوية ، وكان يقابل علم الفقه الذي يتناول ظواهر العبادات ورسومها ، وهذا الدور لا يعيننا في هذا الفصل ، ولما نشأ البحث في العقائد والتماس الإيمان من طريق النظر أو النفوس المقدسة ، وتوجهت همم المسلمين إلى التماس المعرفة على أساليب المتكلمين ، أصبح الكمال الديني

(١) الغزالي ، الاحياء ج ٤ ص ٤٢٨ (٢) الغزالي ، الاحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالي ، كيمياء السعادة ص ١٥

(٤) كان في نيتنا أن نسوق أمثلة للكشف الغيبي عند الصوفية والحجائين والمصروعين ونحوهم ، نعقب عليها بتحليلها وردّها إلى عللها القريبة ، ولكن بدا لنا أن حجم الكتاب المقرر ينتظر أن يضيق عنها ، فليطلع القارئ على هذه النماذج في الطبقات الكبرى للشعراني (ج ١ ص ١٥٦ و ج ٢ ص ١٣ و ٧٦ و ١٢٠ و ١٦٠ و ١٦١) . وليحاول تحليلها !..

(٥) استعرض زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمي وجهات النظر المختلفة في هذه المنابع ، في كتابه الشائق « الحياة الروحية في الإسلام » مستنداً إلى مصادر قيمة .

هو التماس الإيمان والمعرفة من طريق التصفية والمكاشفة ، وأصبح التصوف عبارة عن بيان هذه الطريقة وسلوكها ، وأصبح بذلك طريقا للمعرفة يقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين ، واعتبر علم المكاشفة ، وهو نور يظهر في القلب عند تطهيره وتذكيته من صفاته المذمومة ، وتنكشف بذلك النور أمور كثيرة ، ثم شاعت بعد ذلك أقاويل الفلاسفة والمتكلمين في الصانع وصدور الموجودات عنه ونحو ذلك (فتكلم الصوفية في هذا كله على منهجهم الذي لا يعتمد على نظر ولا نص ولا معرفة إلا من ذاق ما ذاقوا ، وهم يرون ما تكلموا به حق اليقين الذي لا يقبل شكاً ولا يلحقه بطلان ، ولا يدركه إلا من بلغ رتبة العرفان) ، ويقول معالي الباشا إنه لا يفكر أن التصوف في هذا الدور لم يخل من تأثر ببعض ما وصل إلى المسلمين من معارف الأمم القديمة ، ولكنه مع ذلك لا يزال يجد الصبغة الإسلامية غالبية في هذا العلم الوليد ، ولا يسلم برأى جولد تسيهر في ضرورة تقدير النصيب الهندي الذي ساهم في تكوين هذه الطريقة الدينية المتولدة من الأفلاطونية الجديدة^(١) .

وهذا رأى سليم فيما يلوح ، أما المؤثرات القديمة العربية التي يشير إليها معالي الباشا فربما كانت - فيما نرى - الأفلاطونية الجديدة والغنوصية والرواقية والفيثاغورية ونحوها ، وقد يستلزم الحديث عن هذا كله ، الإشارة إلى تأثر اليونان والرومان بقدماء الشرقيين في هذا الصدد ، بل ينبغي أن نبداً ببيان موقف الدين الإسلامي ، فإن التصوف إذا لم يتصل بالعناصر الدخيلة ، وبقي في نطاق الزهد الإسلامي ، لكان ينتظر أن يتطور ويتحول ، وإن كان تطوره سيكون على غير الوجه الذي نراه الآن بعد اتصاله بالعناصر الدخيلة فيما يقول نيكلسون^(٢) .

(١) معالي الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق في تعليقه على مادة تصوف بالنسخة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .

(2) Nickolson : Mystics of Islam p. 20 and A. Litt. Hist of the Arabs p. 392.

صوف الدين الإسلامي من هذه الآراء :

ذهب الصوفية وأشباعهم إلى أن هذه الأفكار قد وردت تصريحاً أو تلميحاً في آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ، ومن أجل هذا - فيما يلوح - قال ابن خلدون : إن متأخري الصوفية الذين تكلموا في الكشف وما وراء الحس ، وذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة ، يتجهون إلى الإسلام ويستقون منه مبادئهم ، وقد خالطوا الإسماعيلية المتأخرين من الرافدة الذين يدينون بالحلول وتأليه الأئمة ، وظهر في كلام الصوفية القطب ومعناه رأس العارفين ، وزعموا ألا يبلغ أحد مرتبته في المعرفة حتى يقبضه الله ويورث مقامه لآخر من أهل العرفان^(١) . ويقول الغزالي إن الله يقول وعلمناه من لدنا علماً ، مع أن الله مصدر كل علم ، إلا أن بعض العلوم يجيء اكتساباً بالتعلم ، وليست هذه علوماً لدنية ، لأن العلم اللدني هو الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من الخارج ، إنما يجيء بالتقوى والعمل الصالح ، قال تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً - قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ويخرج من الشبهات ، ولهذا كان الرسول يكثر في دعائه من سؤال النور ، فيقول اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل في قلبي نوراً ... وصرح القرآن بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم ، وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » من الإشكالات والشبه ، « ويرزقه من حيث لا يحتسب » أي يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة ، وقال الرسول من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووقفه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٩٤

آتاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ، وهكذا يروى أهل الباطن^(١) الكثير من الآيات والأحاديث التي يثبتون بها أن الله مصدر وحى الأولياء وأهل الكشف ، وأن العمل الصالح وتقوى الله ، هي التي تهيب النفس الإنسانية إلى الوحي والإلهام ، وأن مصادر هذا كله موجودة في القرآن والحديث ، وإذا جاز أن يقال إن الغزالي ليس محدثاً ولا يحسن رواية الحديث ، جاز أن يقال إن الحنابلة من أهل الظاهر يسلمون بالكشف الصحيح ، ويؤيدونه بآيات الله وأحاديث رسوله ، وقد عرفنا هذا من بعض ما أسلفناه ، ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن تيمية عن صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي أنه قال : ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ... الخ ويروى عن الترمذي أن النبي قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ويورد من آيات القرآن ما يشهد بصحة هذا الرأي^(٢) وبهذا يصبح الإسلام عند الصوفية وأهل السنة معا ، المصدر الذي استقى منه التصوف القول بكشف المؤمن للغيب ، عن إلهام إلهي لا دخل فيه لتعلم أو تجربة ، وقد اعتمد أهل التصوف على هذا ، وبالغوا في تصوير التقوى والعمل الصالح حتى ألغوا الدنيا وأبقوا على الحياة الأخرى وحدها ، ولهذا ما يبرره في الإسلام نفسه ، فالدين وإن كان قد جمع بين الدنيا والآخرة ، إلا أنه أثر الأخرى في الكثير من آياته .

الكشف الصوفي في تراث اليونان والرومان : موقف الروافية :

يعبر « كونتوس » الرواق عن الآراء السالفة فيقول ، إن في النفس الإنسانية

(١) الغزالي ، في الاحياء ج ٣ ص ٢٠ و ٢٢ وقد سجلنا هذه الأحاديث مؤرخين لا مؤيدين .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ص ١٩٩

ملكة ملازمة لها ، تمكّنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملكة ، وجعلها بإرادته جزءا مكونا لها ، فإذا نمت هذه الملكة على غير قياس ، سميت جنة أو إلهاما إلهيا^(١) ، ويكرر هذا المعنى قائلا ، إن الطبيعة البشرية تبين عن مقدرتها على التنبؤ بالغيب ، عند ما تتخلص من علائق الجسد ، وهذا ما يقع في الرؤيا ، أو في الأوقات التي يعترى فيها النفس جذب أو إلهام إلهي ، وليس في ذلك من بدع ، فإن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضها ويدرك كل منها ما يفكر فيه غيره ، دون الاستعانة بالحواس من عين أو أذن أو لسان أو نحوه ، والناس لا يساورهم الشك في أن الآلهة على علم بكل تصرفاتهم ، ولو كانت في خفاء ، فكذلك الحال في نفوس البشر ، عند ما تدرك بفطرتها عالم الغيب حين تتجرد من علائق الجسد وتتخلص من شهواته ، دون أن تستعين بالنظر أو السمع أو نحوه من أدوات المعرفة الحسية^(٢) .

وبهذا يقرر الرواقية ما يقوله إخوان الصفا وغيرهم من مفكري الإسلام الذين قالوا بوجود قوة تكمن في باطن النفس البشرية ، تمكّنها من كشف الغيب عند ما تتجرد النفس من علائق الجسم وشهواته ، وهذا نفسه ما يؤكده « كونتوس » حينما يقول إن التكهّن الطبيعي يعزى إلى الطبيعة الإلهية ، وأن النفس أثناء اليقظة تستبد بها مطالب الحياة اليومية ، فيمنعها هذا من الاتصال بالنفوس الإلهية ، وأن من المحقق أن النفس لا تستطيع هذا النوع من التكهّن ، إلا إذا كانت من الحرية بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا ، كما يقع في حالات الجذب أو الرؤيا الصادقة ، ولا غرابة في هذا ما دمنا نسلم بوجود الآلهة وهيمنتهم على الكون ، بما لهم من سبق النظر بالمستقبل ، وتديرهم لشئون الناس جماعات وأفرادا^(٣) .

(١) شيشرون : العلم بالغيب في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول .

(٢) المصدر السالف : في الفقرة السابعة والخمسين من الكتاب الأول .

(٣) المصدر نفسه في الفقرات من ٤٩ - ٥١ .

الغنوصية والأفلاطونية الجبرية وأثرها في الكشف الصوفي :

وقد امتزجت الرواقية والفيثاغورية والأفلاطونية بعناصر فارسية وسريانية ونحوها ، وتآلف من هذا كله مزاج تشبيع بروح صوفية تجلت أول الأمر في مذهب الغنوصية الذي عاش في القرون الأربعة السابقة للميلاد ، وقصد أصحابه إلى إدراك كنه الأسرار الربانية عن طريق الكشف الصوفي ، لا بالبرهان والاستدلال العقلي ، ثم شاعت هذه النزعات في التصوف الإسلامي الذي حاربه أهل السنة أول الأمر ، ثم سلموا به وأقبلوا عليه بعد أن روج له الغزالي ، وتأثر التصوف الإسلامي للرسول بالروح الغنوصية ، ولوحظ أن الأرواح القدسية التي كانت في الهيلينية ، قد ظهر ما يقابلها في الإسلام بوجود الأولياء إلى حد أن أضحي محمد ، وهو نموذجهم الأعلى ، هو العقل الموجود منذ الأزل والرحيم المخلص القدير ، وهكذا تأثر التصوف وفرقه في هذه النزعات الهيلينية إلى جانب تأثره بالأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثه فيما يقول الأستاذ بيكر في محاضراته عن تراث الأوائل في الشرق والغرب ، وكما يظهر من مقال « جولدتسيهر » عن العناصر الأفلاطونية المحدثه والغنوصية في الحديث النبوي^(١) .

أما فكرة الجذب التي شاعت في كتب التصوف الإسلامي ، فقد كانت معروفة في الأفلاطونية الجديدة ، وقد فطن « سانت هيلير » إلى ردها إلى أرسطو ، لا إلى الأفلاطونية - إذ قرر بأن السعادة تكون في شواغل العقل (التأمل) ومشاهدة الذكاء ، وذلك أن أرسطو يقول إن الغرض الأسمى للحياة ، هو فاعلية النفس بالمطابقة للفضيلة ، وهي فضيلة تفكر ، وقال سانت هيلير إن الاسكندرانيين قد ذهبوا

(١) قارن هذا في ترجمة زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوي في « تراث اليونان » .

في هذا المذهب الأرسطاطاليسى إلى نهايته ، فأداهم هذا إلى القول بادعاء الولاية وضلالات الغيبوبة^(١) .

وفي الحق لقد شاع عند الرومان التنبؤ بالغيب أثناء الجذب ، وكانت له آلهة تتولاه ، وكان موضع ثقة عند الناس ، وأشهر هذه الآلهة « بللونا » Bellone التي أشار إلى بعض نبوءاتها المؤرخون من أمثال تبوللوس Tibullus وجوفنال Juvenal ولوكان Lucan ، وكذلك يقال في الإلهة « ما » Ma والإلهة سيبييل Cybèle ولكن المؤرخين قد أشاروا إلى أن اليونان قد استعاروا عن الشرق القديم الكثير من هذه المعتقدات .

في التراث الشرقي القديم :

يقال إن الإلهة « ما » قد نقلها جند الرومان من آسيا الصغرى ، حين كانوا يقاتلون في أرضها تحت إمرة « سلا » ويشهد بهذا بلوتارك في (حياة سلا) وقد كانت آسيا الصغرى في أواخر عهد الجمهورية مهداً للحروب ، ويقول بلوتارك إن « سلا » كان قد رأى هذه الإلهة في حلم وقع له - أما الإلهة « سيبييل » أم الآلهة ، فهي أسيوية نقلت بقرار من مجلس الأعيان أثناء حروب هانيبال ..!! وقد قرر المجلس نقلها بعد الاطلاع على ما ورد في هذه الكتب بشأنها .

ويضاف إلى هذا أن كهنة هؤلاء الآلهة كانوا يسمون Fanatici أي المجانين أو المجاذيب ، وكانوا يقطعون أنفسهم حتى يسيل الدم من أبدانهم ، ويزعمون أنهم لا يشعرون ولا يدرون ما يفعلون .

(١) سانت هيلير في مقدمته لترجمة الأخلاق لأرسطو ترجمة الأستاذ لطفى السيد باشا .

أهل الكشف من المجانين والمرضى ومن إليهم :

أشرنا إلى موقف بعض مفكرى الإسلام من هؤلاء فى قدرتهم على كشف الغيب ، ولم نعتز فى القرآن والحديث على ما يؤيد وجهات نظرهم ، ولكن لهذا الموقف شبيها فى التراث القديم :

فالرواقية يسمون بقدرة النفس على التنبؤ إبان النوم ، لأنها تكون حية وقوية ، وقالوا إنها تكون أوفر حياة وأعظم قوة عند ما يدركها الموت ، إذ تتجرد من علائق البدن فى هذه الحالة كل التجرد ، وبهذا تعظم قدرتها على التنبؤ بدنوها من الموت ، والذين يعتريهم مرض شديد مهلك ، يرون الموت وهو يوشك أن ينقض عليهم فيما يقول كونتوس^(١) ، وقد ذهب أرسطو من قبل إلى القول بأن المصابين بالسوداء ، تقوم فى باطن نفوسهم قوة تمكنهم من التكهن^(٢) وقد دلى « بوسيدونيوس » الرواقى على قدرة المشرفين على الموت على التنبؤ ، مستشهداً بقصة رجل من أهل رودس ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئاً بموت كل منهم على الترتيب^(٣) وأيد « كونتوس » هذا رأى بقصة رجل تنبأ وهو على كومة الخشب التى سيجرق عليها جثمانه بمصرع الإسكندر العاجل ، وتحققت نبوءته بعد أيام قلائل^(٤) ، وفى الحق إن الفكرة أعرق فى القدم من الرواقية ، فإن

(١) شيشرون ، فى الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول .

(٢) أرسطو ProbXXX ص ٤٧١ ويلاحظ أن كونتوس لم يسلم برأيه ، ورد هذا إلى النفس السليمة لا الجسم المريض — قارن الفقرة ٣٨ من الكتاب الاول فى شيشرون ، وهذا يخالف رأيه فى الفقرة الثلاثين — السالفة الذكر —

(٣) شيشرون فى الفقرة ٢٩ من الكتاب الأول . وقارن الفقرة الثالثة والعشرين فى الكتاب

نفسه .

(٤) المصدر نفسه فى الفقرة الثانية والعشرين .

« ديو دورس » الصقلي يقول إن فيثاغورس وغيره من قدماء الطبيعيين ، قالوا - اعتقاداً منهم بخلود النفس - إن النفس تدرك المستقبل في اللحظة التي تنفصل فيها عن الجسد ، ويكرر (سكستوس إمبريكوس) نصاً لأرسطو مقررّاً أنه يعيد ما يرويه هوميروس في الإلياذة في هذا الصدد ، وقد روى « هوميروس » أن « هكتور » كان يقتل « باتروكلوس » فتنبأ الأخير قبل أن تفارق روحه جسده ، بأن قاتله هكتور سيقتله « آشيل »^(١) ، ولما تحقق هذا ، تنبأ هكتور قبل أن يلفظ نفسه ، بأن آشيل سيقتل على يد باريس بمعونة أبولو^(٢) ، وقد أيد القول بتنبؤ المشرفين على الموت ، بعض الممتازين من الأطباء ، فإن « أريتيه » Aretée - على سبيل المثال - يقول في أسباب الأمراض الحادة وأعراضها ، إن الملوك العقلية تحتفظ بنشاطها أثناء الإصابة بالحمى الحادة ، بل إن المرضى يتنبأون خلالها بموت أنفسهم ، ويعلنون المستقبل القريب لمن يحيطون بهم^(٣) .

حسبنا هذا عن تنبؤ المرضى والمشرفين على الموت ، أما المجانين والمصروعون والمعتوهون من مريدى الصوفية ، فقد ذكرنا عن حالات الجذب والمس في المذهب الإسكندري وعند الرواقية ما يكفي في هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير إلى أن الرواقية مثلاً ، قد آمنوا بأن المعتوهين من أمثال « كساندرا » يكشفون الغيب الذي لا يقوى على كشفه الحكماء من أمثال « بريام » ولا يرون غضاضة في جهل السر في هذا ، قانعين بما يرون وما تشهد به تجاربهم^(٤) ، وإن كان أتباع الأكاديمية الجديدة من

(١) هوميروس : الإلياذة في الكتاب السادس عشر سطر ٨٥٣ وما بعده .

(٢) المصدر السالف في الكتاب الثاني والعشرين ص ٣١٠ من طبعة Flammarian

(٣) شارل أبون في تعليقاته على شيشرون (طبعة جازنييه الفرنسية)

(٤) شيشرون في الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول

أمثال شيشرون ، لا يسلّمون بهذا الرأي الذى يخلع على من فقد العقل البشرى عقلا إلهيا ، ويحاولون أن يثبتوا بأن « سيبييل » كانت تمتاز بالعقل المركز ، لا المخ المتهاج ولا الذهن المخبول^(١) ، وحسبنا أن نشير إلى أن رأى الرواقية السالف ، هو الذى تردد صداه عند ابن خلدون وغيره من مفكرى الإسلام - فيما يلوح - وأن هذا رأى نفسه ، هو الذى عرفه مؤلفو المسيحية فى نظريتهم التى قرروا فيها سمو الجاهل صاحب القلب البسيط الصافى على العالم العاقل ، وعلو الطفل على الرجل الناضج ، وتفوق فاقدى الوعى على من يعتقد أنه أوتى الحكمة^(٢) ، وأليس هذا نفسه هو رأى الذى ذهب إليه بعض صوفية الإسلام ، حين قالوا بأن التعلم والتجربة ونحوهما ، يعوق الكشف الصوفى ويمنع العلم اللدنى ، على نحو ما أبنا من قبل ..؟

إن عدوى الثقافات وتزواج الآراء لا سبيل إلى إنكاره ، ولكن التشابه فى الأفكار بين الشعوب ، قد يكون مرده إلى صدور هذه الأفكار جميعها عن مصدر آخر يسبقها ، وكثيراً ما يكون مرجعه إلى طبيعة العقل البشرى ، الذى يستجيب للمؤثرات المتشابهة بأفكار واحدة ...

(١) المصدر السالف فى الفقرة ٥٤ من الكتاب الثانى .

(٢) شارل أبون فى تعليقاته المشار إليها سابقا .

الرؤيا الصادقة^(١)

اتفق جمهور مفكرى الإسلام ، على القول بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، فى يقظة أو منام أو فيهما معا ، فإن وقع هذا إبان اليقظة كان مظهراً للنبوة أو الولاية أو نحوها مما عرضنا لبيانها من قبل ، وإن وقع أثناء النوم كان رؤيا صادقة ، فإن لم تكن بوحي من الله لكشف غيب كانت أضغاث أحلام ، أدت إليها وسوسة نفس أو غلبة مزاج أو وحي شيطان ، أو نحو هذا مما اعتبروه أضغاثاً لا تقبل تأويلاً ولا تستحق اهتماماً . . ! وسنهمل أمر هذه الأضغاث لأنها لا تدخل فى نطاق هذا الكتاب ، وإن كان مفكرو الإسلام قد أجادوا فى تصويرها وتعليلها معاً .

علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية :

وقد ذهبوا إلى أن الرؤيا تنبع من نفس المعين الذى تستقى منه النبوة والولاية ،

(١) الجزء الأول فى هذا الفصل مقتبس عن بحث لنا جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة ، وكان دراسة مقارنة فى موضوع الأحلام . وقد اضطرنا ضيق المقام الآن إلى الاكتفاء باقتباس فقرات مقتضبة موجزة تشير إلى بعض المذاهب الإسلامية فى هذا الصدد ، وإهمال منابع هذه المذاهب أو ما يقابلها فى التراث اليونانى والشرقى القديم ، كما اضطرنا منهج بحثنا إلى أن نغفل هنا ذكر مذاهب المحدثين من علماء النفس ، وهذا كله مفصل فى بحثنا الأسمى عن الأحلام ، وقد ظهر هذا الشهر (سبتمبر ١٩٤٥)

وإن كان حظها منه أقل كمًّا وكيفًا ، فلنعرض رأى ابن خلدون كنموذج لهذا الاتجاه :

يرى ابن خلدون أن للعقل نطاقا يحسن التفكير في مجاله ، فهو يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ويعتمد على التفكير النظرى . وهذه هى مدارك العلماء ، فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ضل سبيلا ، ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من الإدراك يقوم فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء وتهيأ للأولياء ، ومع الناس نموذج منه ، يتبدى فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام ، واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير ، لأن فى النفس البشرية استعدادا للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، لتصير ملكا بالفعل فى لحظة من اللحظات ، وعندئذ تتجه إلى الملاء الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتسابا ، وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحانى ، لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية ، مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها ، فإذا ترقى النفس تجاوزت هذا المجال ، واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الحس ، فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة حتى تتجاوز الأوليات التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول ، إلى فضاء المشاهدات الباطنية ، وتلك هى مدارك الأولياء ، أصحاب العلوم الدنية والمعارف الربانية ، ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم .

وقد ترقى النفس المفطورة على الانسلاخ من البشرية جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، لتصير فى لحظة من اللحظات ملكا بالفعل ، فتشهد أهل الملاء الأعلى فى أفقهم ، وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى فى تلك اللحظة ،

وتلك هي نفوس الأنبياء في حال الوحي التي فطروا عليها ، ولم يظفروا بها صناعة ولا اكتساباً^(١) .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية ، وهي أقل في الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن أو غيره ، وهذا الاستعداد السالف يقوم في النفس ما دامت في البدن ، وهو على صنفين : صنف خاص يتهيأ للأولياء ، وآخر عام في البشر جميعاً وهو الرؤيا الصادقة ، أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء ، فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة ، وهي أعلى الروحانيات^(٢) .

ومثل هذا نراه عند غير ابن خلدون ، فالغزالي يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة^(٣) وبينهما وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم ، يقوم فيها إلهام الأولياء ، الذى يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحي النبوى . قويا بالقياس إلى وحي الرؤيا^(٤) .

مذاهب المفكرين في تصور الرؤيا وتعليمها :

تتلخص وجهات النظر الإسلامية في هذا الصدد في اتجاهين ، أحدهما شرعى صوفى ، وثانيهما فلسفى ميثافيزيقى ، فلنعرض الاتجاهين في إيجاز :

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٣ - ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٨٩

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٤) الغزالي : الرسالة الدنية ص ٤٣

الاتجاه الصوفي :

يرى الإشرافيون من الصوفية أن النفس من عالم المجردات والمعقولات ، فهي تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التي تكون من جنسها ، إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن ، فإذا قويت الفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية ، بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحياناً إلى عالم القدس وتتصل بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتتلقى عنها المغيبات في نومها ، كما يقع لها هذا في يقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش^(١) ، وهكذا إذا تطهرنا من شواغل البدن ، وتأملنا كبرياء الحق والنور الفاضل من لدنه ، وجدنا في أنفسنا بروقا ذات بريق ، وشروقا ذات تشريق ، وشاهدنا أنواراً ، وقضينا أوطاراً^(٢) ، وبهذا يتمكن الإنسان من الاتحاد بروح القدس المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال ، وهو أبونا ورب طمس نوعنا ، ومفيض نفوسنا ومكملها بالسكالات العلمية^(٣) .

وذهب القائلون بوحدة الوجود من الصوفية إلى أن وصول العبد إلى خالقه غير ميسور مع وجود الاثنينية ، فلا بد من إفنائها أولاً ، عندئذ لا يهبط الوحي من كائن أعلى مستقل عن الإنسان ، وإنما ينبع من نفسه ، فالوجود حقيقة واحدة ، وما نراه من تعدد وكثرة ، مرجعه إلى آثار الحواس والعقل الذي يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء ، وقد ظهر الوجود الحق في صورة الكباش في منام إبراهيم الخليل ، كما ظهر في صورة إسحاق ، « وما ناب إلا عن نفسه ، وما فدى منها إلا

(١) السهروردي : هياكل النور ص ٤٣ - ٤٤

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨

بنفسه الطاهرة في الصورة الكبدية « وعلى هذا فوحى الرؤيا لا يهبط من خارج ، وإنما يصدر بهذا المعنى . من باطن النفس ^(١) .

ويرى الصوفية إجمالاً أن اليقظة التي تتوافر لنا بالحس هي النوم ، وأن الحلم الذي يتهيأ لنا بالفعل هو اليقظة لا محالة ، ولغلبة الحس علينا ظننا الأمر على خلاف وجهه الصحيح ، فإن غلبنا العقل على الحس ، ظهر وجه الحق في ذلك ^(٢) فإن المرء إذا ارتقى في حال المعرفة ، أدرك أنه نائم في حال اليقظة المعهودة ، وأن الأمر الذي هو فيه ، إنما هو رؤيا إيماناً وكشفاً ، وقد ذكر أموراً واقعة في ظاهر الحس وقال : فاعتبروا ، وقال إن في ذلك لعبرة - أي جوزوا أو اعتبروا مما ظهر لكم من ذلك ، إلى علم ما يبطن فيه ، وفي الحديث النبوي : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، ولكن لا يشعرون ، وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ^(٣) . ولكن الناس يحسبون وهما أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئاً من عالم الغيب ، وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة ، مما يدرك عن طريق الحواس ^(٤) . واللوح المحفوظ مرآة نقش عليها المقادير بغير حروف ، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى ، لانكشفت فيها صور الأولى ، إلا إذا قام بينهما حجاب ، وليست المرآة الثانية إلا القلب ، والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا في اليقظة ، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول ، وبذلك تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ ،

(١) ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٣٦ - ١٣٧ وكتاب الدكتور عفيفي عنه وتعليقه على مقال ابن عربي في النسخة العربية في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) أبو حيان التوحيدي : المقابسات ص ١٧٩ - ١٨٠

(٣) ابن عربي : الفتوحات ج ٢ ض ٤٩٩ والتهانوي في كشف الاصطلاحات ج ١

ص ٤٥١

(٤) الغزالي : كيمياء السعادة ص ١٤

وتتكشف للنفس آفاق العالم المجهول^(١) ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم حالاتها ، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانها ، ولكن الرؤيا لا تقع لكل نائم ، ولا تجيء في كل نوم ، إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة ، فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة ، وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء^(٢) ، وهو لا يتحقق إلا بتجرد النفس من شهوات الجسم ، التي تُكوّن على عين القلب غشاوة تمنعها من الإبصار ، وهذه الغشاوة منقشعة عن عيون الأنبياء ، ولكن الجلاء البصرى الذى تهياً لهم ، لا مطمع فيه للإنسان ، وللبشر نوع من المشاهدة الضعيفة يتوافر أثناء النوم ، لأن النوم يمنع الحواس عن العمل^(٣) ، ومتى تجردت النفس عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، أضحت روحانية ، وارتفع حجاب الحس ، ويقع لها هذا بسبب النوم أحياناً ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية ، وتعود بها إلى مداركها^(٤) ، وإذا كان الموت أذا النوم ، زال العجب من انكشاف الحجاب إبانها ، ذلك أن الموت يحول صاحبه من عالم الملك والشهادة ، إلى عالم الغيب والملكوت ، وبهذا يرى بالعين التي خلقها الله في كل قلب ، ولا يعوقها عن النظر إلا غشاء الشهوات^(٥) ، ومن أجل هذا حاول بعض الناس أن يموتوا موتاً صنعياً ، بقتل جميع القوى البدنية ، وتغذيتها بالذكر والجوع ونحوه^(٦) ، وفي النوم يذهب الحس ويزول حجابها ، على نحو

(١) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٢٩ ؛ وكيمياء السعادة ص ١٥

(٢) ابن حزم : ج ٥ ص ١٩

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٢٩ ؛ وج ٣ ص ١٦ وكيمياء السعادة ص ١٥ وما بعدها .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ - ٩٠

(٥) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٢٨

(٦) ابن خلدون في مقدمته ص ٩٥

أضعف مما يكون في الموت ، ولهذا تقع الرؤيا الصادقة إبانة ، ويكون الكشف فيها أقل في العادة منه عند الموت - وهكذا تتمكن النفس من الاتصال بالجواهر الروحانية الشريفة في حال النوم ، الذي تنصرف فيه النفس عن شغل الحواس^(١) .

وأما الملائكة التي تتلقى عنها نفوس المؤمنين هذا العلم أثناء النوم ، فهي نفوس الموتى من أهل التقوى ، فإن هؤلاء إذا التزموا الخلق القويم ، وتفقهوا في الدين حتى يخرجوا من ظلمات الجهالة ، والتزموا كرم الأخلاق منذ صباهم ، وفكروا في الدنيا وأحوالها ، حتى انتبهوا من نوم الغفلة والجهالة ، كانت نفوسهم ملائكة بالقوة ، متى فارقتهم أضحت ملائكة بالفعل ، واستقلت بذاتها ، واستغنت عن التعلق بالأجسام ، ونجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتقت إلى عالم الأفلاك ، وعندئذ تأبى الاتصال بغير بنات جنسها من نفوس المؤمنين - الملائكة بالقوة - وربما نزلت الملائكة إلى نفوس المؤمنين في منامها ، ووعظتها وذكرتها بالمعاد ، أو وصفت لها ما صارت إليه ، وبشرتها فاستبشرت^(٢) . وليس من الممكن أن تكون النفوس ملائكة بالقوة ، مهيأة لقبول الوحي والإلهام ، مستعدة للارتفاع إلى رتبة الملائكة والتخلص من عالم الكون والفساد ، والاتصال بعالم البقاء والدوام ، إلا بصفاء الجوهر وحميد الأخلاق ونحو ذلك^(٣) وهكذا يكون مرد العلم في الرؤيا إلى الملائكة التي تمد به نفوس المؤمنين أثناء النوم ، وهذا التعليل يسائر اعتبارها جزءاً من النبوة ، يتهيأ لأهل الإيمان وصفوة المؤمنين .

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٤ - ١٦٥ وقد ذكروا من آيات القرآن ما يؤيد ما يقولون .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٤ وغيرها

الرجاء الفلسفي في تصورها وتعليلها:

ذهب فلاسفة الإسلام إلى أن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، ورفض أهل الكلام التسليم بها واعتبروها من مخترعات الفلاسفة ، حسبنا منها الحس المشترك ، وهو القوة التي ترسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة^(١) ، ويرى الفلاسفة أن هذا الحس المشترك قد يأخذ المدرك في النوم من صور في العقل الفعال ، وقد يلبسه صوراً تحتاج إلى التعبير أو يبدية سافراً فيقع كما ظهر^(٢) ، بل إن الحس المشترك لا يتلقاه في عرفهم عن العقل الفعال رأساً ، بل يأخذه عن النفس الناطقة - العقل المستفاد - التي تأخذه بدورها عن العقل الفعال ، آخر العقول المفارقة ، وفيه ترسم صور الكائنات جميعها^(٣) ، فهو في هذا يشبه الجواهر الروحانية الشريفة عند الغزالي ، واللوح المحفوظ عند أهل الشرع ، والروح المقدسة عند السهروردي ، أما طريق الاتصال بالعقل الفعال ، فيكون بالتأمل العقلي أو بالخيالة القوية .

ولسنا الآن بصدد الإسهاب في بيان آراء الفلاسفة ، وضيق المجال يبرر هذا الإيجاز ، فحسبنا أن نشير إلى الكندي - أول فيلسوف إسلامي - وهو يرجع الرؤيا إلى النفس ، ويردها إلى القوة الخيالة ، ويريد بها الأداة التي تحصل صور المرئيات من

(١) التهانوي: كشف الاصطلاحات ج ١ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ وابن مسكويه في الفوز الأصغر ص ٩٧ وما بعدها وقارن ابن خلدون ص ٩٠ وابن رشد ص ٧٨ من الحاس والمحسوس والغزالي في مقاصد الفلاسفة ص ٣١٣ - ٣١٤

(٢) الأئجي جواهر الكلام ص ١٧٣

(٣) التهانوي في الكشف ج ١ ص ٦٠١

غير مادة - أى مع غيبة موضوعاتها عن حواسنا - والرؤيا تقع للمرء متى أغفلت استعمال الحواس ، ومتى كانت النفس نقية متجردة عما يفسد قواها ، استطاعت أن تبين عن الأشياء قبل وقوعها^(١) . ولكن الكندى لم ينشئ مدرسة تروج بعده لتعاليمه .

وإذا جاز أن يقال إن الكندى أول من وضع الأساس في تعليل الأحلام الباطلة في فلسفة الإسلام ، كان من الحق أن يقال إن الفارابى - أكبر فلاسفة الإسلام بعد ابن سينا - هو أول من وضع نظرية الأحلام الفلسفية في الإسلام ، فقد عرض لتعليل الرؤيا الصادقة ؛ ليثبت النبوة عن طريقها ، ولينتهى إلى أن النبى والحكيم صالحان لرياسة المدينة الفاضلة ...

وتعليل الفارابى للرؤيا ، تسلم إليه نظريته في الاتصال بالعقل الفعال^(٢) ، وحسبنا أن نعرف من هذه النظرية أن في كل سماء من سماوات العالم العلوى عقلا مفارقا ، يشرف على نظامها ويدير حركتها ، وهذه العقول المفارقة تترتب في تدرج حتى تنتهى بالعقل العاشر أو العقل الفعال^(٣) ، وهو الذى يشرف على الإنسانية ، ويكون صلة بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وفاصلا روحياً بين العالم الإلهى والإنسانى ، وهو مصدر الشرائع ومبعث الإلهامات الإلهية ، وإن كان مرد الإلهام إلى الله ، ولكن العقل العاشر واسطة بين الله والإنسان ، فهو يشبه الملك الموكل أنه رجال الدين ، ومن الممكن للإنسان أن يتصل بهذا العقل ، ويأخذ عنه علم ما لم يعلم بالتأمل العقلى

(١) رسالة الكندى في لغتها العربية فقدت - فيما نعلم ، وتحفظ اللغة اللاتينية بنسخة منها ، وقد نقلها الأستاذ محمد متولى بالاستعانة بالأستاذ يوسف كرم ولم تنشر الرسالة بعد

(٢) قارن في هذا بحثاً قى للدكتور إبراهيم مدكور فى مجلة الرسالة بعدديها ١٥٧ و١٧٧

(٣) قارن الفارابى فى مقالته فى معانى العقل (نشر الأب بويج) .

الذى يرقى بعقله إلى درجة العقل المستفاد ، وقد يظفر بهذا صاحب الخيلة القوية^(١) ،
ومثل هذا الاتصال يقع فى النوم ، فيكون رؤيا صادقة ، أو فى اليقظة فيكون نبوة ،
وإن كان الأنبياء أقوى خيلة من النيام ، ومن أجل هذا استطاعوا الاتصال بالعقل
الفعال أثناء اليقظة^(٢) .

وقد ترددت آراء الفارابى عند غيره من فلاسفة الإسلام ، وأخصهم ابن سينا
أشهرهم جميعا ، إذ اتخذ الأحلام أداة لإثبات النبوة ، وذهب إلى القول بأن الأحداث
منقوشة فى لوح محفوظ فى العالم العلوى ، وفى وسع بعض الناس الاتصال به ، عن
طريق مخيلتهم القوية ، فيقع لهم هذا أثناء نومهم ، فإن أفرطت مخيلتهم فى القوة
ظفروا بالاتصال أيقاظا وأولئك هم الأنبياء^(٣) ، وذلك لأن الخيلة مصدر الصور
الباطنية ، ولكن شواغل حسية أو باطنية تصرفها عن أداء وظيفتها^(٤) وهذه تقل
عند النوم ، وتنقطع فى حال النبوة ، وهكذا سار ابن سينا فى نفس الاتجاه الذى رسمه
أستاذه من قبل .

أما ابن رشد فإنه يقرر أن الرؤيا لا تعرض لقوة الحس أو النطق فى النفس ،
ولكنها ترجع إلى الخيلة - كالأحلام الباطلة أحيانا - وهى تتصل بالعقل الفعال
البرىء ، ولا يرد كشفها الغيب المحجب إلى مقدمات أو فكر أو روية ، وإلا كان
شأنه شأن المعرفة التصديقية التى تحصل لنا عن مقدمات ، والذى يعطى المعرفة

(١) الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٤٧

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ - ٥٢ .

(٣) ابن سينا : إثبات النبوات (الرسالة السادسة فى رسائل الحكمة وهى ص ٨٢

والإشارات ص ٢٠٩ - ٢١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٢ - ٢١٤ .

الغيبية في الرؤيا هو نفس العقل الذى يعطى المبادئ الكلية فى الأمور النظرية ، وإن كانت هذه تعطى المبادئ الكلية الفاعلة للمعرفة المجهولة ، أما فى حالة النوم فتعطى المعرفة المجهولة بلا وساطة ، وماهية النبوة داخلية فى هذا النوع من الإعطاء ، ومن أجل هذا نسب هذا إلى إله ، هو عقل برىء عن المادة ، والمعروف فى العلوم الإلهية أن هذه العقول المفارقة إنما تعطى شبيه ما فى جوهرها^(١) .

وعلة اختصاص النوم بهذا الإدراك الشريف ، أن النفس واحدة بالموضوع كثيرة بالقوى ، ولهذا فإنها حين تستعمل بعض قواها الباطنة ، يضعف بعضها الآخر ، وفعل القوة الخيالية فى حال النوم يكون أكمل لا محالة ، إذ تتعطل أثناء النوم الحواس الظاهرة وآلاتها ، وتميل النفس بذلك نحو الحس الباطن^(٢) .

حسبنا هذا فى الإبانة عن موقف الفلاسفة والصوفية ورجال الشرع من تفسير الرؤيا الصادقة وتعليلها ، ولنحاول أن نتبين مدى الصواب فى اعتبارها وحيا إلهيا ، يكشف غيبا محجبا :

مناقشة الادعاء بأنها وحى إلهي :

لكي نناقش وجهات النظر الإسلامية - شرعية وصوفية وفلسفية - فى اعتبار الرؤيا وحيا لكشف غيب محجب ، ينبغى أن نعرض لموقف القرآن الكريم منها : قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » وهذه الآية تجمع أصناف الوحي الإلهي الثلاثة ، ويراد

(١) ابن رشد : المقالة الثانية من الحاس والمحسوس ص ٨٢ - ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٧ - ٨٨ .

بالوحي فيها إلقاء المعنى في القلب ، وليس فيها ما يشير إلى أن هذا الالتقاء أو النفث في الروح يقع في يقظة أو منام ، ولكن بعضهم قد فسر الوحي بالرؤيا ، وشبهه بما وقع لإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده في المنام ، ولم يقصر وقوع هذا الوحي على الأنبياء وحدهم ، واستند في هذا إلى قوله تعالى : « ... الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » إذ فسر الفخر الرازي البشرى بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، وهذا الاتجاه في تفسير الآيتين ، قد سرى كالبرق بين المسلمين ، حتى استقر في أذهانهم أن القرآن يقرر بأن الرؤيا وحي عن الله ، وأنه يقع للأنبياء ومن إليهم من صفوة المؤمنين ، وقد تضمنت الأحاديث الكثير مما يؤيد هذا الاتجاه ، فلم يكن لمسلم بعد هذا أن يستخف بها ، ولكن اختلاطها بالنبوة قد حملهم على سلب التشريع عنها ووضعها بعد الولاية .

ولعل صرد نزوع المسلمين إلى اعتبارها وحياً إلهياً ، إلى الطبيعة البشرية ، لأن إضافة الصفة الإلهية للرؤيا يسائر هذه الفطرة ، ولا يعوق التسليم بها إلا الجدل العقلي الذي لا يتمشى في كثير من الحالات مع الطبيعة في كل أهوائها ، وقد عرفت هذه الصفة شعوب لا تدين بالإسلام ، ولا بغيره من الديانات المنزلة ، بل اهتدت إليها قبل أن تعرف هذه الديانات ، حتى قرر المؤرخون بأن الكشف الإلهي في الأحلام عقيدة كل شعب ، بل كل فرد في الماضي السحيق ، وأن من العبث أن نتساءل من أين وصل الاعتقاد في الأحلام إلى اليونان مثلاً ، فالأحلام قديمة قدم العالم ، وليس لها بداية يمكن للتاريخ أن يسجلها^(١) .

ويلوح لنا أن الذين فسروا الآية القرآنية الخاصة بالوحي ، قد حملوا لفظ الوحي

(1) Bouché - Leclercq, L'histoire de la Divination 1. p. 277 - 8.

فوق ما يطيق من معنى ، ولعل هذا يقال فيمن فسروا البشرى بالرؤيا ، فعمموا بذلك وقوع الوحي لغير الأنبياء والرسل ، ولا شك أن هذا التفسير قد صادف هوى في نفوس المسلمين ، فوضعوا فيضا من الأحاديث النبوية المنجولة أملاً في تمكين الرؤيا وتأييدها وحياً من الله .

وإذا كانت الرؤيا بدء الوحي في رسالة النبي كما ورد في حديث عائشة في باب « كيف كان بدء الوحي » في صحيح البخاري ، فإن ذلك لا يستلزم أن تكون رؤيا غير الرسول وحياً من الله ، فليس كل ماجاز له ، يجوز لغيره ، وإلا كان الناس كلهم رسلاً ... وإذا كان القرآن قد تضمن رؤى وقعت لبعض الأنبياء وحياً إلهياً ، فإن هذا لا يقتضي وقوع مثلها لغير الأنبياء ، فمن الجائز أن يخصهم الله بغير ما يخص به سائر الناس .

والجمال يقتضينا الإيجاز في هذا الصدد ، ولكن ينبغي أن نشير إلى أننا لا ننكر إمكان تحقق بعض الأحلام على سبيل المصادفة أو الاستجابة إلى إحاء أو استهواء ذاتي أو نحو هذا مما تفصله الدراسات السيكولوجية الحديثة ، وقد كان من الحق مع هذا كله - أن نقول - إن نزوع المفكرين إلى ربط الرؤيا بالدين شيء طبيعي وقع لغير المسلمين من شعوب ، حتى قبل نزول الأديان المقدسة ، وأى شيء في تاريخ الدنيا اتصل بالمجهول ولم يرتبط في أذهان الناس بالمعتقدات الدينية .. ؟

ولعل رأينا هذا يقويه عندنا ما لاحظناه في موقف جمهور المتكلمين من الرؤيا الصادقة ، فهم أصحاب نزعة عقلية ملحوظة ، وقد أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسناً ، ولكنهم يعتبرون الرؤيا خيالا باطلاً ، ولعل بعض « المعتزلة » هذا الرأي بفقد شرط الإدراك ، وقيل لأن عادة الله تعالى لم تجر بخلق الإدراك في النائم^(١) ،

(١) الأبحي في جواهر الكلام (نشر الدكتور عفيفي) .

إذ النوم ضد الإدراك ، والضدان لا يجتمعان ، وإن كان هذا التعليل لا ينفي قيام الوحي فيما يبدو لنا ، من الناحية الشكلية المنطقية المحضة .

تأويل الرؤيا :

ذهب مفكرو الإسلام إلى أن أضغاث الأحلام لا تقبل تأويلا ، ولكنهم أجمعوا على تعبير الرؤيا الصادقة ، بل جعلوا تعبيرها علما له قوانينه الكلية^(١) ، وأصوله العامة التي لا يستقيم التأويل بدونها^(٢) . ويراد بعلم التعبير معرفة الأمور الغيبية عن طريق التخيلات النفسانية التي تقع أثناء النوم^(٣) . وهو يستلزم تفكير المرء في الصور التي وعثها حافظته مما رآه في رؤياه ، ثم محاولة إرجاعها إلى ما يشبهها من مدركات الحس التي وعها من قبل ، ثم استخدام الخيال والذاكرة في الانتقال من شيء إلى شيء موجب له إلى آخر مؤد إليه ، وهكذا حتى يهتدى آخر الأمر إلى أول شيء كان السبب في تخيل هذه الصورة الأخيرة التي وقعت في الرؤيا^(٤) ، وبتجريد مدركات النوم عن الصور التي كساها فيها الخيال على هذا النحو ، يصل المعبر إلى حقيقة هذه المدركات^(٥) والتعبير لا يتطلب معرفة المناسبات التي بين الصور ومعانيها فحسب ؛ بل يقتضى معرفة مراتب النفوس التي تظهر الصورة في حضرة خيالاتهم ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٧ والقنوجي في أبجد العلوم ص ٣٩٩ - ٤٠٠ يردد مايقول ابن خلدون من غير إشارة إليه .

(٢) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٢ - ١٣ وابن شاهين في الإشارات ص ٣٦٢ والسالمى في الإشارة في علم العبارة ص ٣ +

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٩١ ، طاشكبرى زاده في مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٤ والتهانوى في مقدمة الكشف ص ٤٤ وقارن ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٤١

(٤) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٥) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠١

ومن أجل هذا اختلفت الصورة الواحدة باختلاف مراتب الأشخاص^(١) ، والمطلع على كتب التعبير يلاحظ أنها تحوى « جداول » أو قوائم بأسماء الأشياء التى يحتمل أن تظهر فى الأحلام ، والمعانى التى يحملها كل منها ، ويلاحظ أن الرمز الواحد يحمل معانى كثيرة تختلف باختلاف الأمم والملل والأفراد ، بل قد تختلف عند الفرد الواحد باختلاف ظروفه وأحواله ، وإن كان فى الرموز عنصر مشترك بين الشعوب على اختلاف أجناسها وتباين أديانها ، مما يرجع إلى وحدة الطبيعة البشرية فى كل زمان ومكان . وهذا الاختلاف استوجب توافر صفات كثيرة فى المعبر لا يقوى على تأويل الرؤيا بدونها ، ويظهر أن المستشرق مرجليوث Margoliouth قد فاتته هذه الملاحظة حتى صرح فى معرض حديثه عن كتاب النابلسى فى التعبير بالأحلام ، أنه يشير الحيرة ويدعو إلى الاضطراب ، بكثرة ما يورده من معانى الرمز الواحد...! ^(٢) مع أن أكثر المعبرين - ومنهم النابلسى - لا يذكرون المعانى التى تحملها رموز الأحلام ، إلا بعد مقدمة يعرضون فيها لأصول التعبير وقوانينه العامة .

على أن أهل التعبير لا يقنعون بالصفات التى أوجبوا توافرها فى المعبر ، والقوانين التى ألزموه باتباعها ، فيقولون إن التعبير وإن كان ضرباً من الحدس والفطنة^(٣) يعتمد على الاطلاع والذكاء والحدق ، إلا أن أهله لو اعتمدوا على كتب التعبير وحدها ، عجزوا عن تعبير الكثير من الرموز ، لأن التعبير يتوقف - إلى جانب حدق المعبر - على « الفتحة عليه بهذا العلم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »^(٤) ، وذو

(١) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٤١

(2) Margoliouth, art. Muslim Divination (Encyclopedia of Religion and Ethics).

(٣) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٤) النابلسى : تعبير الأنام ج ١ ص ٨ وابن شاهين فى الإرشادات فى علم العبارات

ابن خلدون إلى أن القرائن التي تعين المعبر على تعبير الرؤيا ، منها ما ينقدح في نفسه بالخاصية التي خلقت فيه ، وكلُّ ميسرٍ لما خلق له ^(١) . وصرح ابن عربي بأن العلم بالتعبير انكشاف لا يحصل إلا بالتجلي الإلهي من حضرة الاسم الجامع بين الظاهر والباطن ^(٢) ، وأيد هذا الاتجاه كبار المعبرين ^(٣) .

نماذج من الرؤيا الصادقة وتحليلها :

١ - قيل إن أم الإمام الشافعي ، رأت في منامها بعد أن حملت به ، أن « المشتري » خرج من فرجها ، وانقضَّ بمصر ، ثم تفرق في كل بلد قطعة .. ! فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذاً في مصر ، ينشر علمه في أكثر البلاد طويلاً وعرضاً - فكان الأمر كما قالوا ^(٤) .

٢ - قيل إن رجلاً رأى نفسه يختم على أفواه الرجال والنساء وفروج هؤلاء ، فقال ابن سيرين في تعبيرها : إنه مؤذن ، أذن في رمضان قبل مطلع الفجر . فكان الأمر كما قال ^(٥) .

٣ - قيل إن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها ، فعبّر أبوها رؤياها ، بموته وموت الرسول والفاروق ، ودفنهم في حجرتها جميعاً . وصحَّ بعد ما قال ^(٦) .

(١) ابن خلدون في المقدمة ص ٤١٧ (٢) ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٤١

(٣) قارن الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١٣٩ والزمخشري في الكشاف ج ١

ص ٦٦١ (٤) الأبشهي : المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ١٠٨

(٥) طاشكبري زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٤

(٦) الأبشهي ج ٢ ص ١٠٨

٤ — حين كان معالي أستاذنا مصطفى باشا عبدالرازق ، سكرتيراً للمعاهد الدينية ، كان الشيخ سليم البشرى شيخاً للجامع الأزهر ، ومرض معاليه ، فزاره الشيخ في منامه ، وفي الصباح زايله المرض .. ! فعبّر هذه الرؤيا أحد الذين سمعوا روايتها في هذه الجلسة ، بأن اسم الشيخ الأكبر دالّ على مضمون الرؤيا ، سليم تعبر عن السلامة — العافية — والبشرى ترمز إلى البشرى — بالشفاء .

٥ — فاخر الشعرائى بوقوع كثير من الرؤى له ، بوحي بها الله عسى أن يحتاط للأمور المقبلة ، إن كانت الحيلة ممكنة ، فمن ذلك أنه كان وصياً على أبناء أخيه ، فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى في تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً في خلوته ليخرجوا منه ، فأدرك أنه أخطأ في أمره السالف ، وعدل عنه .. ! وإذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته ، وساورته الشكوك فيما سمع ، رأى في ليله من اغتيب ، يلبس البياض ، فيدرك كذب المغتاب ... الخ^(١)

٦ — وروى الرحالة « لين » E.Lane أن الإمام الشيخ المهدي ، قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة — هو الشيخ أحمد البهى — كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير ، فسمعه يؤرخ حياة الحسين ، ويعقب قائلاً إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسينى المعروف في القاهرة ، وكان « البهى » يعتقد غير ذلك ، فألمه ماسمع ، ولكنه لم يعترض على الشيخ احتراماً لشهرته ، وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس ، انطلق إلى بيته ، وأقام الصلاة ودعا ربه — وهو جاث على ركبتيه — أن يريه رسول الله في رؤيا صادقة ، يعرف منها حقيقة هذه المسألة ؛ فلما استسلم للنوم رأى أنه في الطريق إلى زيارة المشهد الحسينى ، فلما دنا من قبته ، رأى النور يشع منها

فدخل المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه - بعد تبادل التحية - أن يقرئ رسول الله السلام ، فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فظهر بقوله : السلام عليك يا رسول الله ، وكررها ثلاث مرات والدمع يجري على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أدن مني يا بني فقاده الشريف وأجلسه في حضرتة ، فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بني . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلاً الرجل غبطة وطمأنينة ، واستأذن الرسول في أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير في درسه ، فلما سمع الرسول قصته ، طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة ، فاستيقظ من نومه ، وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه (الأمير) فلما بلغ الباب دقّه بعنف أفزع سكان البيت ، ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته . ! فلما علم الشيخ بصاحب الصوت ، أدهشه مجيئه في هذا الوقت المبكر ، وظنّ سوءاً .. ! وأخذ البهي - من فرط التأثر - يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام ، أو يقبل يده كما جرت عادته معه . وقص رؤياه منبئاً شيخه بأن الشريف الذي كان بالباب هو الإمام علي ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر ، والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا في زيارة الحسين .. ! فنهض الشيخ الأمير لتوه ، وقال هيا بنا لزيارة الحسين .. ! ولما دخل القبة قال : السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إني أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهي شاهدة على ذلك ، لأن رؤيا الرسول حق ... الخ (١) .

(1) E. W. Lane, The Manners and Customs Of Modern Egyptians
p. 219 - 221.

حسبنا من نماذج الرؤيا ما أسلفنا ، وقبل تحليلها ننبه القراء إلى أن تأويل الأحلام وتحليلها ، لا يكفي فيه أن تعرف أحداث الحلم ومناظره ، وإنما يتطلب التأويل معرفة الكثير عن حياة الحالم ، ولا سيما تجاربه في يومه السابق ، وقد أشرنا في حديثنا عن التعبير إلى بعض مستلزماته وأكثرها مسلم به في الدراسات السيكولوجية الحديثة ، ولكن الكثير مما تلزم معرفته ، غير متوافر لنا بصدد هذه الأمثلة ، ومع هذا فسنحاول تأويلها في ضوء معلوماتنا عنها ، موجزين على قدر الاستطاعة :

١ - أما الرؤيا التي رويناها عن أم الشافعي ، فالراجح أنها مختلفة ، إذ يكاد يكون من المقطوع به ، أنها لا تعرف « المشتري » الذي ورد اسمه في القصة ، وقد تحرينا ذكر هذا المثال في صدر نماذجنا ، لنقول إن الكثير من الأمثلة التي وردت في المصادر الإسلامية مختلف أو مبالغ فيه ، رغبة في تأييد القول بأن الرؤيا قد تكون وحياً إلهياً . فإذا قيل إن كلمة « المشتري » هي المختلفة ، وأما القصة فصحيحة ، قلنا إن هذا محتمل ، وعندئذ يكون تأويل الرؤيا ، على الوجه الآتي :

كل أم تعلق على وليدها المنتظر آمالاً كباراً ، ولا غرابة في أن تتمثل هذه التمنيات في الحلم نوراً يشع ، ويتوزع في البلاد طولا وعرضا ، ومثل هذا الحلم يقع للأمهات كثيراً ، وإن اختلفت صورته ومناظره ، والأم التي تنكر وقوع مثله لها ، تعطينا الدليل على أنها تنسى أحلامها أو بعضها ، وقد حرصت المصادر الإسلامية على رواية الحلم السالف ، لأن الشافعي إمام فذ في تاريخ الإسلام ، ولو وقع عن غيره ، وذكرته صاحبه بعد يقظتها ، لأغفل التاريخ أمره .! ويؤول مثل هذا الحلم ، بأن صاحبه تتمنى أن يكون طفلها في مقبل أيامه عالماً ممتازاً ، لأن النور كثيراً ما يرمز إلى هدى العلم والدين ونحوه ، أما تحقيقه فأكبر الظن أنه لا يكون إلا على سبيل المصادفات .

٢ — والمثال الثانى يرينا أن الرؤيا — عند ابن سيرين — لاتدل على المستقبل دواما، وقد أشار إلى هذا النابلسى ، ونص على أنها تكشف المغيب فى الماضى والحاضر كذلك^(١) ، وتأويل هذا المثال معقول ، والحلم فيه ترداد لخواطر جرت فى الذهن أثناء اليقظة .

٣ — أما حلم السيدة عائشة ، فردّه — فيما يلوح — إلى إعجابها بهؤلاء الثلاثة ، والمظنون أن الوسوس كانت تساورها — فى اليوم السابق لوقوع الحلم — بصدد موتهم المنتظر ، وتجربة اليوم السابق ، وهى توقع نزول الموت بهؤلاء الأعداء ، كفييلة بأن تنشئ مثل هذا الحلم ، وقد تمثلوا فى أقمار ، رمزاً لنور الهداية الدينية التى كانوا يقومون بها يومذاك ، وليس غريباً أن يموت هؤلاء الثلاثة بعد ذلك ، فلموت هو المصير المحتوم لكل إنسان . بقى تحقق دفنهم فى حجرتها ، وتفسير هذا — فيما يبدو لى — أنه كان استجابة من القائمين بأمر الدفن ، لما ظنوا أنه رؤيا صادقة ، فلمؤرخون يقولون إن المسلمين قد اختلفوا — بعد وفاة الرسول — فى مكان دفنه ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وكاد الرأى يستقر على دفنه فى المسجد ، حيث كان يخطب ويعظ ويصلى بالناس ، ولكن السيدة عائشة نفسها هى التى حالت دون ذلك ، إذ قالت إن النبى كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه ، فكان يضعه مرة على وجهه ، ويكشف مرة عنه ، وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد...! فعدلوا عن دفنه فى المسجد ، وعندئذ قضى أبو بكر — وهو الذى عبّر رؤيا عائشة — بين الناس إذ قال : إني سمعت رسول الله يقول «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»

(١) النابلسى : تعطير الأنام ج ١ ص ٥ .

فتقرر - عندئذ - أن يحفر له مكان الفراش الذي قبض فوقه ..! (١) أما دفن أبي بكر مع الرسول ، فرجعه إلى أنه هو الذي أوصى بذلك ..! (٢) وأما دفن عمر معهما ، فرده إلى أنه هو الذي استأذن السيدة عائشة في ذلك قبيل وفاته ..!

٤ - أما حلم معالى الباشا ، فإن طريقة تأويله كانت شائعة عند المسلمين الأول ولكن التشابه بين معانى الأسماء التى يظهر أصحابها فى الحلم ، والصحة والعافية للمريض ، لا يبرر جعل الأول علة للثانى .! ولعل الأصح أن يقال إن معاليه كان فى ليلة الحلم ، على وشك البرء من مرضه ، والمعروف عند المحدثين من علماء النفس - بل هذا رأى فطن إليه أرسطو قديما - أن الإحساسات الباطنية تكبر فى الأحلام ، أما فى اليقظة فإن مشاغلنا اليومية تصرف انتباهنا عن هذه الإحساسات (٣) ، فإحساس معاليه الباطنى بدنو البرء من المرض ، كان قبل الحلم ضعيفاً غير مشعور به أثناء اليقظة وعند النوم قوى هذا الإحساس وأصبح مشعوراً به ، فكان بهذا مشاراً لحلم ، تجلى فى طريقة رمزية كانت معروفة عند المسلمين كما يعرف معاليه . وليس فى الحلم بعد هذا أية غرابة .

٥ - أما ما رويناه عن الشعرانى ، فرجعه - فيما يبدو - إلى أنه حين أصدر أمره إلى أولاد أخيه بملازمة حجرتهم ، شعر - أثناء ذلك أو بعد ذلك بقليل - أنه يقسو على أيتام ، وهذا الشعور ليس غريباً على رجل دين وتصوف ، وربما كان

(١) محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد ص ٤٩٣ - ٤ (مع ملاحظة أنه لم يشر إلى هذه الرؤيا

(٢) محمد حسين هيكل باشا : أبو بكر الصديق ص ٣٥٤

(٣) ومعنى هذا أن أرسطو الذى أنكر الرؤيا الصادقة ، قد سلم بتنبؤ الحلم ببدء الأمراض التى تكون فى اليقظة غير مشعور بها . وسلم المحدثون من علماء النفس بذلك . أنظر فى تفصيل هذا رأى ، كتابنا «الأحلام» ص ٦٨ و ١٤٣ (فى بيان رأى أرسطو) ، ص ٥٣ - ٥٤ و ٧٣ - ٧٤ (فى بيان رأى المحدثين من علماء النفس) .

شعوره من الضعف بحيث لم يقو على صرفه عن مسلكه إزاءهم ، فلما استسلم للنوم ، كبر عنده ما خطر له في يقظته ، وتمثلت له الصورة التي رآها ، فعدل عن مسلكه .! أما حلمه الثاني فإنه يعترف في رواية له ، بأنه إذا ارتاب في كلام المغتاب وهو يستمع إليه ، رأى في منامه أن الذي كان موضع غيبة برىء الساحة ..! فالشك قائم في اليقظة ، ولا غرابة في أن يبدو الشك المقلق فيما يسمع ، يقينا بكذبه إذا نام .! ومثل هذا يقال في سائر ما يرويه مما يحسبه وحياً من الله .

٦ — بقى حلم الأستاذ « لين » E. W. Lane ، وبساطته سر طرافته ، إنه حلم صريح سافر ، وليس مقنعاً في رموز تحتاج إلى تأويل ، وهو — فيما يرى بعض المحدثين من علماء النفس — تحقيق رغبة مضغوطة Suppressed Wish - fulfilment^(١) لم تشبع إبان اليقظة ، فتحققت في المنام ، هاله أن يكون رأس الحسين غير موجود في مشهده ، فصلى وطلب إلى الله أن يكشف له عن الحقيقة ؛ والأصح أن نقول إنه طلب إلى الله أن يريه دليلاً على صحة اعتقاده ، في أن الرأس موجود في مشهده ..! فكان له ما أراد . وأذعن شيخه لهذه الرؤيا ، اعتقاداً منه بأن رؤيا الرسول حق ... الخ

وينبغي أن نقول أخيراً ، إن تأويلاتنا لهذه النماذج من الأحلام ، مجرد ترجيحات لا تمنع من وجود احتمالات أخرى ، فليس يتطلب تأويل الحلم ، لا كتفاء بعرض أحداثه ومناظره ، ولا بد للمحلل من الاتصال بصاحب الحلم ، ومعرفة الكثير

(١) الرغبة المضغوطة Suppressed, fr. repressé يعتمد الإنسان إلى إخفائها وعدم المجاهرة بها شاعرا واعيا ، أما الرغبة المكبوتة repressed. fr. refoulé فإنها تكبت على غير وعى وشعور من صاحبها .

عن حياته ، وكشف المجهول من باطن نفسه ، واستكناه الخواطر التي تشغل باله ، ولا سيما ما دار منها بخلده في اليوم السابق على وقوع حلمه ، وغير هذا من مستلزمات فن التأويل والتحليل ، مما يعوزنا بصدد الأمثلة التي عرضناها موجزين ، وكم من حلم استلزم تأويله جلسات طوالا عند المشتغلين بتحليل الأحلام من علماء النفس ، فحسبنا ما ذكرناه ، مجرد إشارات إلى بعض اتجاهات التحليل في الأحلام .

حسبنا هذا عن موقف مفكرى الإسلام من الرؤيا الصادقة ، فقد كانت الأحلام - في شتى صورها - موضع بحث مفصل تناولنا فيه ما قيل بصدها قديما وحديثا ، فليرجع إليه من شاء^(١) .

(١) الأحلام - (دراسة مقارنة) ظهر في سبتمبر ٩٤٥

الباب الثالث

فنون التكهن الصناعي
عند مفكرى الإسلام

1000

1000

1000

فنون التكهن الصنعى

عرضنا فى الباب السالف مذاهب مفكرى الإسلام ، فى فنون التنبؤ الطبيعى الذى يصدر عن وحى أو إلهام إلهى ، أو يكون صدى فطرة لا أثر فيها لصناعة واكتساب ، وسنشرع الآن فى عرض أساليب التكهن الصنعى ، الذى يستند إلى منطق العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، واستغلال المشاهدة واستخدام الأدوات الحسية ، وغير هذا مما يجىء اكتسابا ، قد لا يمنع من توافر طبيعة تهى أصحابها لذلك ، فإذا استشعروا فيها النقص عمدوا إلى تكملتها بأسباب يتحرونها عامدين ، وقد أبى جبهة مفكرى الإسلام التسليم بهذه الأساليب ، ورفضوا أن يأذنوا بمزاولتها ولكنها كانت معروفة فاشية حتى قبل نزول الإسلام ، ومن هنا وجب التحدث عنها :

- ١ -

علم الكهانة^(١)

آفاق الكهانة :

تطلق الكهانة على كثير من ضروب التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها ،

(١) يراد بالعلم هنا مجرد المعرفة البشرية فى ميدان ما ، وليس يتحتم أن يطلق اللفظ على =

وأهل الطرق بالخصى والحبوب من الخنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم^(١) ولكن جمهرة مؤرخيها يحدونها بأنها اتفاق الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من جن وشياطين ، واتخاذهم أداة لمعرفة ما يتصل بالمستقبل من الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون والفساد ، وهي أشيع في العرب منها في غيرهم من شعوب الأرض ، واشتهر من بينهم شق وسطيح^(٢) ومرجع انتشارها بين العرب وندرتها عند غيرهم أنها تتولد «على صفاء المزاج الطبيعي ، وقوة مادة نور النفس» وتتصل «بعفة النفس وقع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم» وذلك أن العزلة تدفع النفس إلى التفكير ، فيتأدى بها هذا إلى الكشف عن الغيب بالعين النورية ، ومتى قويت النفس في الإنسان ، أشرفت على دراية الغائبات قبل ورودها ، وقد كان كبار مفكرى اليونان ، ينعتون هذه الطائفة بالروحانية^(٣) . ولكن بعض مؤرخيها لا يقصرها على معرفة المستقبل وحده ، ويرى أنها تكشف عن مجاهل الغيب ، ما اتصل منه بالماضي والحاضر والمستقبل^(٤) . ولكن اشتمال

= المعرفة اليقينية كما ذهب المتكلمون (ص ٧ ج ١ من أبعاد العلوم) للخنوجى ولا أن تنتظم هذه المعرفة في صورة قواعد وقوانين كما يستلزم معنى العلم - وبعض ما سنعرف من العلوم ، ليس علوما مستقلة ، لكنها فروع لعلوم فيما يقول الخنوجى (فى آخر فهرس الجزء الثانى) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ و ٣٠٢ وحاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ طبعة دار الطباعة المصرية والخنوجى فى أبعاد العلوم ص ٦٠٠ وقيل إن الكهانة لليمن والزجر لبنى أسد والقيافة لبنى مدلج (المسعودى ج ٢ ص ٨٠) .

(٣) المسعودى : صروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥

(٤) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ وكما أن أهل الفن ليسوا على اتفاق فى هذا الصدد ، فكذلك الحال فى أهل اللغة ، ففى اللسان (ج ١٧ ص ٢٤٣) أن الكاهن من =

الكهانة على ما سلف من ضروب التنبؤ ، يبرر الظن بأنها تتضمن الكشف عن الماضي والحاضر والمستقبل ، فإن العرافة نفسها تعتبر - عند بعض المؤرخين - من فروع الكهانة^(١) .

وقيل إن الكاهن لا يستعين في صناعته بآلة ولا بإظهار حساب ولا بنظر في كتاب ، بل بجودة الحفظ وذكاء النفس وصحة العقل وحسن التميز وحدّة الخاطر، مع مساعدة ما اتفق له في مولده الذي أوجب له ذلك^(٢) ، وهى قوة إلهية تتوافر في الناس بسهام سماوية وأسباب فلكية وأقسام علوية ، يرثها بعض الناس فرداً عن فرد^(٣) ، ولكن بعض المؤرخين قد شطرها شطرين : خص أحدها بالتوارث وجعل الكهانة فيه من نواحي بعض النفوس ، فلا تجبء اكتساباً^(٤) ، فيزعم هذا النوع من الكهان بأن له تابعاً من الجن ورئياً يلقى إليه الأخبار . أما الصنف الثانى من الكهانة فهو ما كان بالعزائم ودعوة الكواكب والاشتغال بهما^(٥) . وفى المصادر العربية الكثير من أخبار الكهان^(٦) .

= يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان، ويقول التاج (ج ٩ ص ٣٢٩) تكهن أى قضى بالغيب - ولم يحدد لذلك زماناً - ولكنه يعود فى تفرقة الكهانة من العرافة فيقول (ج ٦ ص ١٩٣) بأن العراف من يخبر بالأحوال المستقبلية ، والكاهن من يخبر بالأحوال الماضية .
(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٢ ويصرح المسعودى (ج ٢ ص ٨٤) بأن العراف دون الكاهن .

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٨٢ .

(٣) أبو حيان التوحيدى فى المقابسات ص ٣٢٦ - الطبعة الأولى عام ١٣٤٧ هـ

(٤) ، (٥) حاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ والتقوجى فى أبجد العلوم

ص ٦٠٠

(٦) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

أصل الكهانة :

إذا كانت الكهانة قد فشلت عند العرب ، فقد عرفت عند غيرهم ، وقد ردها بعض اليونان والرومان إلى صغاء النفوس ، على اعتبار أن صور الأشياء عندهم قائمة في النفس الكلية ، وقد ذهب بعضهم إلى أن الأرواح المنفردة - وهى الجن - تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم قد صفت حتى اتفقت مع أرواح الجن ، ومرد الكهانة إلى ثلاثة مصادر :

أولها : استراق السمع - ويكون هذا طريق شيطان يسترق السمع ويلقى بالأخبار إلى الكهان ، قال تعالى « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » وقال كذلك « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... » الآية . والمعروف أن الشياطين والجن لا تعلم الغيب ، ولكنها تسترق السمع مما يسمع من الملائكة ، قال تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وثانيها : الوحي الفلكي - ذلك أن للكواكب أثراً على مولد الناس - وسنعود إلى بيان هذا في فصل التنجيم .

وثالثها : العلل النفسية - فالنفس : « إذا قويت ، قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف » .

وقد رد أصحاب هذا الرأي العلم للنفس ، لا للجسم الذى اعتبروه مواتاً لا تعتريه حركة ولا يغشاه حس إلا بالنفس^(١) . وسيوضح بعض هذا عند ما نعرض للعلاقة بين الكهانة والنبوة .

(١) المصدر السالف ص ٨٢ - ٨٤ وقارن « مرجليوث » فى مادة Divination (Muslim) فى دائرة معارف الدين والأخلاق .

صلة الكهانة بالنسبة :

أشرنا إلى أن بعض المفكرين يرى أن في النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها ، وأن هذا يتحقق للأنبياء فطرة لا اكتساباً ، ولا يحتاجون فيه إلى الاستعانة بشيء من المدارك أو التصورات أو الأفعال البدنية كلاماً أو حركة أو نحو ذلك ، وإذا سلمنا بهذا الاستعداد الفطري في الطبيعة البشرية ، أوجب العقل أن نسلم بوجود صنف من البشر أدنى من الأنبياء رتبة ، لأن هذا الانسلاخ لا يتهيأ له بغير الاستعانة بما أسلفنا الإشارة إليه من مدارك وأدوات^(١) ، فإن هذه القوة الإلهية — الكهانة — إذا أحس بها من نفسه تحرك بالإرادة ليكمل نقصها فيبرزها في أمور حسية^(٢) جزئية محسوسة أو متخيلة من أجسام شفافه وعظام حيوانات ، وما صنع من طير أو حيوان ، فيستديم إحساسه بذلك ليستعين به على الانسلاخ السالف الذكر ، ولما كانت هذه النفوس مفضولة على النقص والقصور عن بلوغ الكمال ، كان إدراكها للجزئيات أكمل من إدراكها للكليات ، وأداتهم في ذلك مخيلة بالغة القوة ، وليس يقوى الكاهن على إدراك المعقولات إدراكاً كاملاً ، لأن وحيه من وحي الشيطان^(٣) ، فإذا كان الكاهن لا يشوب فنه شيء من الحس ، ويلقى نبوءته على صفائها ونقاها ، كانت كهانته أقوى وأكمل ، لأن قوتها تنسكب عندئذ من المحل الأعلى ، ولكن نفوس الكهانة على نقص وقصور — كما أسلفنا — ولهذا اعتري الخطأ نبوءاتهم ، لأن قوتهم لا تبلغ الغاية في الخلاص أبداً^(٤) ، ومن

(١) ابن خلدون في مقدمته ص ٨٧

(٢) ابن مسكويه في الفوز الأصغر ص ١١٣

(٣) ابن خلدون ص ٨٧ (٤) أبو حيان التوحيدي في مقابساته ص ٢٢٧

أجل هذا قيل إن الكهانة تكون عن مغيب والنبوة عن معين ، والعيان معلوم ،
والغائب موهوم^(١) ، ولهذا فإن صاحب النبوة لا يخطئ ، وهذا هو الذى يميزه عن
الكاهن ، والكاهن إذا اتفق له أن يكون صادقاً لا يتجاوز بما يدعيه رتبته ومقامه ،
فإنه إذا لاح له أمر النبى عرف فضله وسارع إلى تصديقه ، وكان أول مؤمن به ومتبوع
لأوامره ، كما روى عن سواد بن قارب وطليحة وغيرهما^(٢) وإن كان النبى عرضة
للسهو كما فى حديث ذى الدين^(٣) ولهذا يستعين الكاهن بالكلام المسجوع الموزون ،
ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على الاتصال الناقص ، فيهجس هجساً
ربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر خارج عن ذاته المدركة
مباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ، وربما يفزع إلى الظنون
ويلوذ بالتخمينات ، حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويهاً على السائلين ؛
وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد
قال الرسول هذا من سجع الكهان ، نخص السجع بهم ، وقال لابن صياد حين
سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ « قال يأتينى صادق وكاذب
فقال خلط عليك الأمر ، أى أن النبوة خاصتها الدقة بحيث لا يعتريها الكذب
أبداً ، لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى دون استعانة بأجنى — كما هو الحال
فى الكهانة^(٤) وربما يتجرى الكاهن الكذب عامداً مخافة أن يبور سوقه وتكسد
بضاعته ، فيخبر بما لا أثر له فى نفسه ، وما لا يجد له حركة ، وذلك لتمويه أمره ،

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ١٠٣

(٢) ابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ١١٤ وابن خلدون ص ٨٨ — ٨٩

(٣) أبو حيان التوحيدى ص ٢٢٧ وقد ورد الحديث مفصلاً فى الهامش

(٤) ابن خلدون ص ٨٧ — ٨٨

فيضطر بذلك إلى الظنون والتخمينات^(١) وربما عمد إلى الكذب طمعاً في النبوة ،
ويحملهم هذا على عدم التسليم بنبوة من يعاصرهم من الأنبياء ، كما وقع لأمية بن الصلت
وابن صياد ومسيلمة وغيرهم ، فإن غلب الإيمان وانقطعت أمانيتهم في النبوة آمنوا
أصدق إيمان — كما أشرنا من قبل^(٢) .

وقد ذهب بعض المفكرين إلى أن الكهانة قد انقطعت بمجيء الرسول^(٣) ، وأن
الكهان قد حرموا بعد بعثة النبي من كشف الغيب ، حتى ورد في بعض الروايات
أن لا كهانة بعد النبوة ، ولهذا فليس يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم لأن
هذا من دلالات الكفر ، فقد قال النبي : من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما
أنزل على محمد — كما يروى الماوردي^(٤) — وقيل إن النبي حين بعث وحُرست السماء
بالشهب ، ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة ، بطل علم
الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذي فرق الله به بين الحق والباطل ،
وأطلع نبيه بالوحي على ما شاء من علم الغيوب التي عجزت الكهنة عن الإحاطة بها —
ولكن بعض المفكرين لا يسلم بهذا الرأي ، ويرى أن علوم الكهان قد تكون
مستمدة من الشياطين ، وقد تكون من فيض نفوسهم ، والآية القرآنية التي نزلت
في هذا الصدد ، إنما دلت على منع الشياطين من معرفة نوع واحد من أخبار السماء ،
وهو ما اتصل بأخبار البعثة ، أما ما سوى ذلك فإنه مباح لهم ، ثم إن هذا الانقطاع
قد اقتصر على زمن النبوة ، ولم يتجاوزه إلى غيره من أزمان ، فلعل الشياطين أن
تكون قد عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه قبل عهد النبوة ، فإن هذه المدارك تخمد

(١) ابن مسكويه ص ١١٣ (٢) ابن خلدون ص ٨٩

(٣) ابن حزم ج ٥ ص ١٧

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ والقنوجي ص ٦٠٠

زمنها كما تخمد الكواكب والسرّج عند ظهور الشمس ، وقد زعم الحكماء أن الكهانة توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت ، لأن وجود النبوة يتطلب وضعاً فلكياً يقتضيه ، ويتمشى تمام النبوة طردياً مع تمام ذلك الوضع ، عكسياً مع نقصه ، ونقصه يقتضى وجود طبيعة تشبهه في النقص ، وهى طبيعة الكاهن ، وعلى هذا فإن الوضع الناقص الذى يقتضى قيام الكهانة ممثلة في فرد أو أفراد ، يسبق الوضع الكامل الذى يستلزم وجود النبوة ، وقد انقضت الأوضاع التى تدل على مثل تلك الطبيعة ، فليس يوجد منها شيء بعد ، وقد قرر الحكماء هذا استناداً إلى أن بعض الوضع الفلكي يقتضى بعض أثره ، وهذا غير مسلم به ، فإن الوضع قد يقتضى ذلك الأثر ناقصاً بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها ما اقتضى نقصها شيئاً ، وقد رأينا أن للكهان بعض الوجدان من أمر النبوة ، كما أن في كل إنسان بعض الوجدان منها إبان نومه ، ونسبتها في الكاهن أعظم منها في النائم ، وقد عرفنا موقف الكهان من النبي إن عاصروه ^(١) . وإذا كانت الكهانة نموذجاً من النبوة أوضح من نموذج الرؤيا الصادقة ، فإن بعض الكهان قد طمع في النبوة كما عرفنا من قبل ، وليس من العسير أن يعرف نبأ الكاهن الذى يدعى النبوة زوراً ، فإن معجزة النبي فعل خارق للعادة بالتحدى يؤيد النبوة عن الله ، أما الكهانة فإنها كلمات تجرى على لسان الكاهن ، تتراوح بين الصدق والكذب ، والنبي لا يكون إلا كامل الخلق والخلق معاً ، أما الكاهن فإنه يكون مختل العقل ناقص الخلق مزوراً ، فإن ادعى النبوة بكهانيته فقد انكشف أمره ، إذ قد يتصدى له كاهن آخر ويتحداه بكهانيته ، فتتمتع الفروق بينهما ، وذلك ما لا يقع في حال النبوة أبداً ^(٢) .

(١) ابن خلدون ص ٨٨ - ٨٩

(٢) الشعراني : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤٥ وما نظن أن سائر المفكرين يسلمون معه بأوصاف الكاهن على النحو الذى أسلفه ، ولعل اختلال العقل يساعد على التكهن ولا يعوقه !..

مراتب الكهانة :

أشرنا فيما أسلفنا إلى الشائع من أصناف الكهان ، وهم يتفاوتون في مراتب الكهانة ، والكاهن الأصيل لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى عناء كبير ، أما هؤلاء فإنهم يحتملون المشقات في حصر جميع مداركهم الحسية في نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف الكاهن على المرئى حتى يتراءى له المدرك الذى ينبئ عنه ، والكاهن لا يشاهد هذا المدرك في سطح المرآة ، بل إنه يديم النظر في سطحها ، ويطيل أمره حتى يغيب عن البصر ، ويبدو بينه وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام تتمثل فيه صور تشير على الكاهن بالمطلوب سلباً أو إيجاباً ، وهو لا يدرك من أمر المرآة وصورها شيئاً ، وإنما يكون إدراكهم نفسانياً لا يتصل بالبصر ، ومن ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها ، وللناظرين في الماء والكأس ونحوها ، ومن هؤلاء الكهان من يكتفى بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيئه بالعزائم ، ويخبر بعد هذا بما يدرك ، ويزعم بعض هؤلاء أنه يرى في الهواء صوراً مجسمة تحكى له بالمثال والإشارة ما يبتغى إدراكه ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من غيبة من أسلفنا ذكرهم (١) .

نموذج من الكهانة :

نهضت دولة سبأ باليمن ، وكانت هذه على كثرة وديانها واتساع أرضها ، تعوزها الأنهار وتهدها سيول الأمطار ، فأقام أهلها مئات السدود ، اتقاءً لشر السيول ،

(١) ابن خلدون ص ٩٣ ويشبه الأستاذ « مرجليوث » Margoliouth ذلك بما يعرف

حديثاً بـ Crystal-gazers (أنظر مقاله فى دائرة معارف الدين والأخلاق)

ورغبة في الانتفاع بالمياه المحجوزة في رى الأرض ، وكان سد مأرب أعظمها جميعاً ،
حوّل جذب الأرض خصوبة ، وعقمها إنتاجاً ، ولكنه تهدم وسرعان ما أغرق
الزرع وأحال الأرض بقلعا ، فتشتت أهلها ، ومضت غسان إلى الشام والأزد إلى
عمان ... الخ وقد ورد ذكر هذا السيل في سورة سبأ من القرآن الكريم .

ويقول مؤرخو الكهانة إن الكهان قد عرفوا نبأ السيل قبل وقوعه ، ونصحوا
أولى الأمر في البلاد بالعمل على اتقاء شره ، وكان هذا في عهد عمرو بن عامر الذي
تولى رئاسة ولد قحطان ، إذ كان أخوه « عمران » كاهنا عقيما ، وزوجته « ظريفة
الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ، فأنبأ أخاه
بما رأى في كهنته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العرم . وبينما كانت ظريفة
الخير نائمة ذات يوم ، إذ رأت سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت
إلى الأرض فلم تصب شيئا إلا أحرقتة ، ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد ،
وأنت زوجها الملك وهي تقول إن ما رآته قد أذهب عنها النوم ، إذ رأت غيما أبرق
وأرعد طويلا ، ثم أصعق فما وقع على شيء إلا احترق ، فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروح ، سکنوا من جأشها ، حتى ثابت إلى نفسها ، ثم
دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفا لها أن
يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ (دواب باليمن)
منتهصابات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها
وجلست ، وطلبت إلى وصيفها إن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ،
انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ، ووثبت منه سلحفاة وانقلبت
على ظهرها ، وحاولت أن تعتلد على غير جدوى ، فاستعانت بذنبها وحثت التراب على
بطنها وجنبها وقذفت بولا ، فهوت السكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى

الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها في الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره ،
فإذا الشجر يتسكفاً من غير ريح ، فلما أقبلت على زوجها ، ألقت الجاريتين على الفراش ،
فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجها مكانهما ،
فكهننت هذه وقالت — في سجع الكهان المعروف — : « والنور والظلماء ،
والأرض والسماء ، إن الشجر لتتالف ، وليعودنَّ الماء كما كان في الدهر السالف » .
فسألها عمن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شدائد ، يقطع فيها
الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت
سلاحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا
الشجر يتسكفاً . » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هي داهية ركيمة ، ومصيبة
عظيمة ، بأمور جسيمة . » قال وما هي ويلك .. ؟ قالت « أجل إن لي فيها الويل ،
وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل » فألقى نفسه عن الفراش
وقال لها : ما هذا يا ظريفة .. ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف
قليل ... » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين .. ؟ قالت : « اذهب إلى السد ، فإذا
رأيت جرذاً (فأراً) يكثر يديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ،
فاعلم أن الحفر حُفر ، وأن قد وقع بنا الأمر . » قال وما هذا الأمر الذي يقع .. ؟ قالت :
« وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن
الشكل » فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى
على قلبها خمسون رجلاً .. ! ففكر إلى زوجته ، وأنبأها بالخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم	وهاج لي من هوله برح السقم
من جرد كفحل خنزير الأجم	أو تيس صرم من أفاريق الغنم
يسحب صخرأ من جلاميد العرم	له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحباً من الصخر قضم	كأنما يرعى خضيرا من سلم

فقلت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك ، فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مُظَلَّلَةٌ ، لا تدخلها شمس ولا ريح..! فلما فعل ، امتلأت الزجاجة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد ..؟ قالت في سبع سنين . قال ففي أيها يكون ..! قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لكُنْتُهُ ، ولا تأتي عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد في غدها أو في أثنائها ، ورأى عمرو في منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك ، أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع ، والحراب نازل ، فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال للأمر حتى أهانه ابنه وضربه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ..! فصاح : واذا له ..! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد ، وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن في البلد الذي يرحل إليه ، فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليالحق بقصر عمان المشيد ، » فكان الذين نزلوه أزد عمان ، فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليالحق ببطن مر » فكان الذين سكنوه خزاعة ؛ قال : « ومن كان منكم يريد ... إلى آخر ما يحكيه رواة القصة ^(١) .

ولنا على هذه القصة تعقيب نحاول فيه أن نحللها في ضوء المنطق ، نرجئه إلى

« موقفنا من التكهن الصنعى . »

(١) انظر المسعودى ج ٤ ص ٣٧٨ - ٣٩١ في الطبعة الأوربية . وثمة أمثلة أخرى كثيرة رواها المؤرخون ، من أهمها تكهن « سطيح » بمجيء رسول الله (انظر الإشبهى ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠)

علم العرافة^(١)

عبرها وتمييزها عن الكهانة :

أشرنا إلى أن مفكرى الإسلام ليسوا على اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة ، وقلنا إنهم رغم هذا الخلاف في شأن اتصال الكهانة بالزمن الذى يكشف أصحابها أحداثه ، يرون أن العرافة تكشف عن أحداث المستقبل وحده ، وقد عرفنا ذلك عند أهل اللغة كذلك ، ومن المفكرين من خص العرافة بالمعرفة التى تقوم على أسباب سابقة تمهد لهم ، ولعل الأصح أن نخص العرافة بما كان عن كسب وخبرة واستدلال وحس ، فإن ذلك أدعى إلى الاتفاق مع حدها الذى نراه عند مؤرخيها ، من أنها معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية ، بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما أو الاختلاط أو الارتباط ، على أن يكونا معلولين لأمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى المستقبل ، وخفاء الارتباط يشير إلى أن الاطلاع عليه ليس ممكناً للناس كافة ، والذين يهتدون إليه ، يعتمدون على

(١) يشير المستشرق بينس S. Pines فى كتابه عن مذهب الجوهر الفرد عند المسلمين إلى أن اللجأ حظ كتابا يسمى باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس ، نشره وترجمه K. Inostranzev ويقول إن لهذا الكتاب شأن فى دراسة معرفة مفكرى الإسلام بمذاهب المهنود فى العرافة والفراسة . وقد نقل كتاب Pines إلى العربية صديقنا الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده (والترجمة لم تطبع بعد) .

ما تهيأ لهم من تجربة ، أو من فطرة أودعها الله في نفوسهم ، عبر النبي عن أصحابها بالمحدثين أى المصيبين في الظن والفراسة ، وكم في الكتب التي أرخت هذا من أحداث وقصص تثبت صحة ما يدعيه أصحاب العرافة^(١) ونلاحظ من هذا الحد أمرين :

أولهما :

أن العرافة لا تقوم على طبيعة النفس دواما ، فربما استندت إلى ما تهيأ للعراف من تجربة ومهارة وذكاء — فإن صح هذا — ولم يكن مؤرخوها أو ناشرو كتب تاريخها قد أخطأوا حين قالوا في تحديد طريقتهما « إما بالتجارب أو بالحالة المودعة في أنفسهم عند الفطرة » . إن صح هذا كانت العرافة في بعض حالاتها تجيء اكتسابا ، ولا تعتمد على طبيعة في نفوس أهلها .

وثاني الأمرين :

أن العرافة — فيما نرى من حدها — لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضي أو الحاضر ، وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده ، ولعل المفكرين على اتفاق بصدد الأمر الأخير (الاقتصار على كشف المستقبل) ، أما الأول فقد اختلفوا في أمره ، حتى بدا هذا الخلاف عند المفكر الواحد . فمن ذلك أن ابن خلدون — وهو صاحب الفكر الناضج — يقيم العرافة على الفكر والحدس ، فيقول ما نصه « وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال — بالملأ الأعلى — فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين

(١) طاشكبرى زاده في مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٣ ، وحاجي خليفة ح ٢ ص ٢١ ، والقنوجي في أبجد العلوم ج ٢ ص ٥٤٤ وما بعدها

بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك^(١) . وقبل ذلك بصفتين اثنتين يقرر عكس ذلك تماما ، أى أن العرافة تعتمد على الفطرة ولا تستند إلى الصناعة إذ يقول ما نصه :

« ثم إنا نجد في النوع الإنسانى أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما تجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين ... الخ^(٢) وقد أداه هذا التناقض بطبيعة الحال إلى أن ينتهى بالعرافة إلى نتيجتين متناقضتين ، فبينما نلاحظ أنه فى النص الأخير يعترف بأن العرافة من إدراك الغيب ، نجده يعقب على النص الأول قائلا « ويدعون بذلك معرفة الغيب ، وليس منه على الحقيقة .. ! » وقبل هذا التعليق بصفحة واحدة أشار إلى أنه مقبل على الحديث عن أصناف الإدراك الغيبى بعد أن أبان عن استعداد النفس البشرية له .. !

ولكن لا ينبغي أن يمنعنا هذا من تقرير الرأى الراجح ، وهو أن العرافة تقوم على استعداد فى بعض النفوس ، وتستند إلى صناعة تساعد هذا الاستعداد ، ولهذا اعتبرت إدراكا للغيب ، وإن صادفت من رجال الدين ما صادفته الكهانة من وجوه الإنكار ، والاستناد فيه إلى الأحاديث النبوية . وسنعرف هذا فى موقف الدين من هذه الفنون .

آفاقها :

تضمنت الكهانة الكثير من أصناف مدركى الغيب على نحو ما عرفنا من قبل ،

(٢) المصدر السالف ص ٩٢

(١) ابن خلدون ص ٩٤

وكذلك الحال في العرافة ، وكما كان العرب يسمون كل من يتعاطى علما دقيقا كاهنا ، فكذلك أطلقوا على الطبيب والكاهن والمنجم والحاوي الذي يدعى علم الغيب عرافا ، ورغم سعة معناها على هذا النحو ، فإن بعض مؤرخيها قد اعتبرها من فروع الفراسة ، ولعل في بعض ما أسلفناه من شرح معانيها ما يبرر إدخالها في هذا العلم ، وفي الحديث النبوي السالف ما قد يؤيد ذلك ، وتقسيمها عند بعض مؤرخيها إلى ما يجيء اكتسابا وما يكون فطرة وطبيعة قد يقوى من هذا الاتجاه ، ولكننا آثرنا أن نفردها بالكلام لما بينهما من خلاف في الموضوع ، أخصه أن الفراسة وإن كانت تكشف عن مجاهل مغيبة عنا ، فهي لا تكشف مستقبلا ولا ماضيا ، وإنما هي استدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن كما سنعرف بعد .

نماذج من العرافة :

جری العرافون على الاستدلال على المغيب عنهم ، بكلمة تسمع عقب السؤال أو منظر يُرى ، أو مكان في الجسد يضع السائل يده عليه عند توجيه سؤاله ، إلى آخر هذه العلامات التي سنتناولها بالتعليق عند ما نعرض لإبداء رأينا في أساليب التكهّن الصنمى .

ومن أمثلة العرافة أن كان في زمن هرون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرق من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه دُرّ وياقوت وزمرد في سفظ .. ! فسأل الرشيد عن مكانه ، فقال العراف إنه في بئر ، فوجدوه كذلك .. !! وسئل العراف في ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخلة أبيض

وهو كالدر ، ثم يكون بسرّاً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ، وهو لون الياقوت !! فلما سألتهم عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو ، فعرفت أنه في بئر .. ! فاستحسن الرشيد فراسته ، وأعطاه مالا جزيلا .. !

وكان أبو معشر وصاحب له ماريّن في خلاص مسجون ، فسألا عرافا ، فقال أنما في طلب خلاص مسجون ، فسأله أبو معشر : وهل يخلص ؟ قال نعم تذهبان فتجدانه خلص ، فوجدا الأمر كما قال .. ! فلما استفسر أبو معشر عن ذلك ، قال له العراف نحن قوم نأخذ الفأل بالعين والنظر ، فينظر واحدنا إلى الأرض ، ثم يرفع رأسه ، فأول شيء يقع نظره عليه ، يكون الحكم به . فعند أول سؤال وجهته إلى ، رأيت ماء في قربة فقلت هذا محبوس ، وعند السؤال الثاني نظرت فإذا هو قد أفرغ من القربة ، فقلت يخلص .. !!

وقد يستدل العراف بالمكان الذي يضع السائل يده عليه في جسمه عند السؤال ، فالرأس يرمز إلى الرئيس أو الكبير ، والأنف بناء مرتفع أو تل أو ما أشبهه ، والفم بئر عذبة ... الخ^(١)

حسبنا هذا ، ولنرجى رأينا في هذه النماذج ، إلى « موقفنا من التكهن الصنعي » .

(١) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٤ - ٦ والتقوحي في أبجد العلوم ص ٥٤٤ - ٥ وقد ذكر الإبيهي (ج ٢ ص ١٠٣) قصة خلاف المسجون من غير إشارة إلى أبي معشر

علم الفأل والطيرة والعيافة

يراد بعلم الفأل عند مفكرى الإسلام ، الكشف عن الحوادث المقبلة اعتماداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفواً ، وقد جرى هذا في غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما^(١) . أما الطيرة فالشائع أنها تطلق على عكس ما يطلق عليه الفأل ، فإن المطلوب فى الفأل طلب الإقدام ، وفى الطيرة طلب الإحجام ، وأصل الطيرة أن يتشاءم المرء من شيء تتأثر النفس من وروده على الأسماع أو الأبصار تأثراً يغير الطبع ، فإن النفرة الطبيعية من الصوت الذى يحدثه صرير الزجاج أو نهيق الحمار أو نحوه ، ليست من هذا القبيل^(٢) .

وقد جوز البعض استعمال الفأل فى الخير والشر معاً ، وفيما يحسن وفيما يسوء ، ووردت الطيرة جنساً والفأل نوعاً^(٣) ، وفى اللغة ما يبرر هذا الاستعمال^(٤) .

-
- (١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ والقنوجى ص ٥٥٤
 (٢) طاشكبرى ٢٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، والقنوجى ٢٣٦ وفى شيشرون Cicero الذى ذكرناه من قبل أمثلة كثيرة عند الرومان تقابل هذا الذى عرفه المسلمون .
 (٣) أشار التهانوى إلى الفأل بهذا المعنى العام الشامل ج ١ ص ٩٠٧
 (٤) طاشكبرى زاده ص ٢٩٩ وحاجى ج ٢ ص ٦١ والقنوجى ٥٥٦ وعند الرومان ما يشبه ذلك تماماً ، قارن شيشرون فى الفقرة الأربعين من الكتاب الثانى ، رداً على ماجاء فى الفقرة ٤٦ من الكتاب الاول .

وقد شاعت الطيرة عند الكثيرين من العرب حتى تكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم ، وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة لاهتمامهم بالمناسبات البعيدة من حيث اللفظ والمعنى ، كالسفر والجللاء من لفظ السفرجل إذا سمعه أو اهتدى إليه ، وإذا رأى الياسمين قال بأس ومين...! واستنتج من الوسوسة سوء سنة...! وإن بارح داره فاستقبل صاحب آفة تطير بيومه وتشاء وهلم جرا...! (١) ومن المعاني التي تحملها الطيرة والفأل : فن العيافة عند العرب :

فن العيافة :

أطلق البعض العيافة على أحد قسمي القيافة ، ونعني به قيافة الأثر - لا البشر - وسنتحدث عنها بعد ، ولكن الذي جرى لغة وإصطلاحاً أن العيافة زجر الطيور (٢) ، وقد قال القاضي : إن العيافة هي الزجر ، وهو الفأل بأسماء الطيور وأصواتها وألوانها ، كما يتفائل المرء بالعقاب على العقوبة ، والغراب على الغربة ، والهدهد على الهدى ، وقيل إنها تفرق عن الطيرة في أنها تجمع بين التشاؤم والتسعد (٣) ، ولكننا عرفنا أن أهل اللغة قد يوردون الطيرة جنساً والفأل نوعاً . وعلى هذا فليس من فارق بينهما إلا في أن العيافة قد خصت بالطيور ، فإن الأصل في هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير

(١) قارن تاج العروس ج ٨ ص ٥٤

(٢) القنوجي في أبجد العلوم ص ٥٤٩ وقد أشار إلى أن هذا هو المعنى الذي يفيد القاموس والمصباح . وقارن في العيافة إجمالاً كثيراً من الفقرات التي وردت في كتاب شيعرون تئين الآراء المتقابلة بين المسلمين والقدماء ، وانظر الفرق بين العيافين عند الرومان وعند الأغريق وغيرهم ، في الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثاني ، وتعليق « فالكونر » عليها . (٥)

(٣) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ج ١ ص ٩٠٧

— وألحق بذلك غيره من ظباء ونحوها — أو يعافونه — أى يصيحون به أو يرمونه بحجر — فإن ولاهم فى طيره ميامنة سموه سائحاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحاً وتشاءموا منه^(١) ، فالسائح مرجو عند العرب ، والبارح هو المخوف^(٢) ، وإن كان بعضهم يتطير بالسائح ويقيمون بالبارح ، فأهل نجد يقيمون بالسائح ، وأهل التهامم بالضد من ذلك^(٣) . وقد سمي السائح زاجراً لأنه إذا رأى ما يتوهم التشاؤم منه ، زجر بالنهى عن المضى فيه ، ويكون الزجر المدواب والإبل والسباع^(٤) .

الفأل والطيرة بين التأبير والأُسْطَر :

اختص العرب فى الجاهلية بالزجر ، وشاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام^(٥) ، فقد عرفنا أن الطيرة قد عكرت على العرب صفو عيشهم ، فلما أقبل الإسلام نهى النبى عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سفر » ، وكان يحب الفأل ، قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً ينادى : يا سالم ، فقال لأصحابه سامنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا ... هذا ما رواه أهل السير والله أعلم بسنده فيما يقول بعض مؤرخى الفأل والزجر^(٦) .

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ ، والقنوجى ص ٥٥٥ ، ٥٣٦

(٢) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ٨٠

(٣) المصدر السالف ج ٣ ص ٨٢ وانظر هذا الخلاف بين الأغريق واللاتين فى تعليق شارل أبون على الفقرة السابعة من الكتاب الأول فى شيشرون .

(٤) كان الرواقية يردون حركة السائح والبارح — من الطيور — إلى إرادة الله — انظر الفقرة ٥٢ من الكتاب الأول فى شيشرون وتعليق شارل أبون على ذلك .

(٥) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧٤

(٦) القنوجى ص ٥٥٥ وطاشكبرى زاده ص ٢٩٨ والأبشيهى فى المستطرف فى كل =

وقد اشتهر عمر بن الخطاب باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار ، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند ، أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال قريب ، فسأله عن أبيه فقال : ظفر ، فقال عمر متفائلا : ظفر قريب إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله^(١) .

وانصرف جعفر البرمكي إلى داره في وقت خلت فيه الطرق من المارة ، فسمع منشدأ يقول :

يدبر بالنجوم وليس يدرى ورب النجم يفعل ما يريد

فتطير ودعا بالرجل وسأله عما يقصد ، فقال إن البيت عرض له وجرى على لسانه على غير مقصد ، فأمر له بدينار ومضى لوجهه وقد أدركه الضيق ، فلم يعض إلا قليل - فيما تقول الرواية - حتى أوقع به الرشيد^(٢) ...!! وسنعود إلى مناقشة هذه الأمثلة ، وبيان اختلاف المسلمين في الأخذ بها .

وقد شهد الشرع بجواز التفاؤل بالقرآن ، وأيدت التجربة - فيما يقال - صدق هذا التفاؤل ، ونقل عن الصحابة والسلف الصالحين ، واشتهر الفأل الذي يؤخذ بفتح المصحف ، وإن كان الأفضل الاعتبار بالمعاني دون الألفاظ والحروف^(٣) ويسمى هذا بالاستخارة ويقول « لين » إن من يزاولها يبدأ بتلاوة الفاتحة وسورة الإخلاص ، والآية : وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يسقط المصحف بحيث ينفتح

= فن مستطرف ج ٢ ص ١٠٣ ويشبه هذا ما يرويه « كونتوس الرواق » في الفقرة الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين وغيرهما من الكتاب الأول من شيشرون ، وقد فند شيشرون هذا الاتجاه في الفقرة الأربعين من الكتاب الثاني .

(١) عبقرية عمر ص ٣٦ (٢) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٩

(٣) المصدران السالفان .

عرضا ، أو يفتحه عفوا ، ويستخلص الجواب من سابع سطر في الصفحة اليمنى ، فإن لم يسفر عن جواب واضح ، كانت دلالة الكلام على الخير نذيرا ، وعلى الشر بشيرا ، وربما استعاض البعض عن ذلك ، بإحصاء حرف الخاء (خير) والشين (شر) في الصفحة كلها ، ويستنبطون المطلوب من زيادة أحدهما على الآخر ..!!^(١) وروى الماوردي في أدب الدنيا والدين ، أن الوليد بن عبد الملك ، قد استفتى المصحف يوما ، فكان فآله « وخاب كل جبار عنيد » ، فزق المصحف وأنشأ يقول :

تهدد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ماجئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

وتقول الرواية إنه لم يلبث إلا أياما يسيرة ، حتى قتل شر قتلة ، وصاب رأسه على قصره ، ثم على أعلى سور بلده^(٢) ..!

ولكن البعض لم يسلم بجواز التفاؤل بالقرآن . وصرح الإمام أبو بكر العربي في كتابه الأحكام في سورة المائدة بعدم جوازه ، ونقله القرافي عن الإمام الطرطوشي ، وقال الدميري ويقتضى مذهبا كراهيته ، ولكن إباحه غير من عرفنا ابن بطّة الحنبلي^(٣) وإذا كان فتح الفأل من التنزيل ممنوعا فكيف بغيره من كتب الأنبياء والأولياء والمشايع^(٤) . وإذا كان بعض المؤرخين يتردد في التسليم بالأحاديث النبوية التي تؤيد الفأل بكلمة تسمع عفوا ، ويتردد في قبول سندها كما أشرنا من قبل ، فإن جمهرة المفكرين كانوا يترددون في قبوله ، يقول ابن قيم الجوزية في دار السعادة - ويردد صداه غيره من المؤرخين - إن ضرورة التطير وتأثيره لمن يخافه ويخشاه ويتغير منه ،

ويعرض استخارة السبحة الشائعة . E. W. Lane, p. 267 - 8 (1)

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ (٣) حاجي خليفة ج ٢ ص ٦١

(٤) القنوجي ص ٥٥٥

وأما من لم يبال به ، فإنه لا يتأثر منه أصلاً ، ولا سيما إذا قال عند المشاهدة أو السماع :
اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك . اللهم لا يأتى بالحسنات
إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك^(١) - وفي الحق إن
هذه ملاحظة قيمة طيبة ، يعرف قيمتها من كان له اتصال بالدراسات السيكلوجية في
هذا المجال .

صفة الزجر :

على أن الزجر لم يكن هيناً بهذه الصورة التي أسلفناها ، فليس كل امرئ بصالح
لأن يكون زاجراً ، لأن هناك صفات ضرورية لا تتوافر إلا في القليلين ، وفي ذلك
يقول ابن خلدون « وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند
سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه يعد مغيبه ، وهي قوة في النفس تبعث على
الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية
فيمبعثها في البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما ، كما تفعله القوة
المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس ، تتوسط بين المحسوس المرئى في يقظته وتجمعه
مع ماعقلته فيكون عنها الرؤيا^(٢) فأين هذا مما أسلفناه .. وأين هو على وجه التحقيق
من الفأل أو الزجر الذي يكون صدق لكلمة يسمعها المرء عفواً واتفاقاً !.. إن قيمة
الوصف السالف تتضح إذا نحن ذكرنا ما تهيأ للفأل والزجر على هذا النحو الساذج
من عراقة القدم ، وسنعود إلى مناقشة هذا وتفنيد الأمثلة السالفة ، عند ما نعرض
ليبان موقفنا من فنون التكهن الصناعي .

(١) حاجي خليفة ج ٢ ص ٦١ وطاشكبرى زاده ص ٣٠٠ والقنوجى ٥٥٦

(٢) ابن خلدون في المقدمة ص ٩٣

علم أحكام النجوم

علم التنجيم :

اصطلاح المسلمون - فيما يقول الأستاذ « نالينو » C. A. Nallino - على تسميته بعلم - أو صناعة - أحكام (أو قضايا) النجوم ، وقالوا علم (صناعة) الأحكام ، ومنذ القرن الثالث عشر لميلاد المسيح ، سماه البعض « علم النجامة » ولكن علم أو صناعة النجوم أو التنجيم ، يطلق على التنجيم أو علم الفلك أو على العاملين معا ، ويقال للمشتغل بصناعة النجوم : الأحكامي أو المنجم ، وإن كان الأخير يطلق على الفلكي كذلك ، والتفرقة الدقيقة بينهما لم تحدث إلا في القرن الغابر ، وقد جرى أكثر الفلاسفة وأصحاب فهارس العلوم والكتب الجامعة ، على نهج أرسطو وأتباعه في تصنيف العلوم ، فاعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الطبيعية ، كالطب والفراصة والكيمياء وتأويل الأحلام ونحوه ، ولكن علماء الفلك والتنجيم وغيرهم من أمثال الفارابي وإخوان الصفا وابن خلدون ، قد جروا على نهج بطلميوس واعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الرياضية^(١) والعلم الطبيعي والعلم الرياضي قسمان من أقسام الفلسفة ، ومن هنا جاء إقبال المشتغلين بالفلسفة - من أمثال الكندي - على التنجيم ، بل لقد أقبل على مزاولته أئمة الدين النزاعون للدراسات الفلسفية^(٢) .

(١) نالينو في مادة « التنجيم » بدائرة المعارف الإسلامية - في نسختها العربية - وانظر

كتابه : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في العصور الوسطى ص ١٨ - ١٩ بوجه خاص .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرازق في كتابه : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٤٨ و ٢٢٠

صبرانه هذا العلم :

يراد بعلم النجوم معرفة الاستدلال على حوادث الكون والفساد بالتشكلات الفلكية - أى أوضاع الأفلاك والكواكب^(١)، ويتشعب إلى ثلاث شعب : أولاها علم الهيئة الذى يرمى إلى معرفة تركيب الأفلاك وكمية الكواكب وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن ، ويبحث ثانياً في معرفة حل الزيجات وعمل التقاويم واستخراج التواريخ وما شا كل ذلك ، أما ثالثها فهو علم أحكام النجوم ، وهو العلم الذى يرمى إلى معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوال البروج وحركات الكواكب على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر^(٢)

والقسم الأول نظرى والثانى عملى والثالث هو أحكام النجوم^(٣) ، ويقرر إخوان الصفا فى الرسالة السابعة ، بأن النجوم « معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج وكمية أبعادها ومقادير أجرامها ، وكيفية تركيبها ، وسرعة حركاتها ، وكيفية دورانها وماهية طبائعها ، وكيفية دلائلها على الكائنات قبل كونها »^(٤) وهذا - فيما لاحظ الأستاذ نلليينو من قبل - يتفق مع التعريف السالف فى معناه واشتماله على علم الهيئة وأحكام النجوم معا ، ولكن ابن سينا يجرى مجرى الفارابى وأكثر فلاسفة الإسلام

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٦ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ والقنوجى ص ٦٧٢ والتهانوى ج ٢ ص ١٤٢٨ ، وفى مقدمة الكشف ص ٤٤ ، ٥٠ - ٥١

(٢) إخوان الصفا : ص ٧٣ (فى الرسالة الثالثة وهى وقف على علم النجوم)

(٣) نلليينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ص ٢٥ - ٢٦ وهو يشير إلى أن المقرئ قد نقل هذا النص حرفياً (فى كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٧ من طبعة مصر) من غير أن يشير إلى مصدره .

(٥) إخوان الصفا ج ١ ص ٢٠٣

من حيث إنهم لا يعتبرون أحكام النجوم من الأقسام الفرعية للحكمة الطبيعية ، كالطب والفراصة وتعبير الرؤيا وما أشبهه ، وعلى هذا يراد بأحكام النجوم البحث في دلالات الكواكب ... الخ . أى على ما يقع في مستقبل الأيام أو في حاضرها ، أو ما وقع في ماضيها ^(١) . وقد فرّع بعض المفكرين - علم النجوم إلى أحكام النجوم - الذى أسلفناه الآن - وإلى علم النجوم التعليمى وهو الذى يعد في العلوم ، وأما الأول فإنه يعد في القوى والمهن التى بها يقتدر الإنسان على الإنذار بما سيكون ^(٢) ، وفرعه بعضهم إلى علم النجوم التعليمى البرهانى وعلم النجوم الطبيعى ، ويراد بالثانى معرفة أحكام الكواكب وتأثيرها في عالم الكون والفساد ، وأول ما اشتهر به في الإسلام محمد بن إبراهيم (الفزارى) وكان يجرى على مذهب العرب ، وأعقبه محمد بن الجهم البرمكى ، أما من سلك مسلك العجم من الفرس واليونانيين وغيرهم فهم (يعقوب) بن طارق وما شاء الله الهنذى وغيرها ^(٣) .

والذى يعنينا هو علم أحكام النجوم ، وهو لا يعتبر - وفقا لحده السالف - من أجزاء علم الهيئة ، كما يخرج من نطاقه علم الرمل والجفر لأنه لا يبحث عن أحوال النجوم ^(٤) وقد فرق المؤرخون بين النجوم وأحكام النجوم فقالوا إن الأول يعرف

(١) الفارابى في إحصاء العلوم : ص ٤٣ (نشرة زميلنا الدكتور عثمان أمين)

(٢) نفس المصدر السالف ص ٤٣ - ٤٤

(٣) ابن صاعد الأندلسى ، فى طبقات الأئمة ص ٨٠ - ٨١

(٤) التهانوى فى ص ٥٠ - ٥١ ولكن ابن خلدون يعد الرمل من فروع علم النجوم

وقد نقل عنه هذا رأى القنوجى فى أبجد العلوم - ص ٤٠ وذهب إلى هذا الرحالة « لين » Lane وسنعرف رأيه بعد قليل .

بالحساب فهو من فروع العلم الرياضى ، وأما الثانى فيعرف بدلالة الطبيعة على الآثار فهو من فروع العلم الطبيعى^(١) .

ويستخدم التنجيم بوجه خاص - فيما يشير « لين » فى معرفة طوابع المواليد ، وتعيين أوقات الحظ ونحو ذلك ، وكثيراً ما يستخدم للتكهن بالبرج الذى يتأثر به الإنسان ، وذلك بعملية حساب تقوم على القيم العددية لحروف اسم الفرد واسم أمه ، وكثيراً ما يُستغل هذا لمعرفة التوافق عند الإقدام على زواج ، وقد عرف « لين » أن علم الرمل الذى يبدو فى صورة علامات ترسم عفواً على ورق أو رمل ، ويزعم أهله أنه يكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل - يقوم فى أصله على علم التنجيم^(٢) .

فى تاريخ التنجيم وتطوره :

شاعت النجامة منذ الماضى السحيق عند قدماء الشرقيين من آشوريين وكلدانيين ومصريين ونحوهم ، ممن مكنتهم طبيعة بلادهم وحياتهم من ملاحظة النجوم ومراقبة حركاتها^(٣) . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن آراء الهيلينيين (التى كانت مزاجاً من التفكير اليونانى والروح الشرقى) فى مجال التنجيم والرؤيا والسحر ونحوه ، قد أصبحت عربية إسلامية فيما (يقول بكر Beker) ، وأن غير هؤلاء يرون أن الأفلاطونية الجديدة هى التى مكنت لعلم التنجيم عند بعض المسلمين من أمثال إخوان الصفا ، إذ أن القضاء عند أهلها هو علم الله السابق بما توجبه أحكام

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦

(٢) E. W. Lane فى كتابه السالف الذكر ص ٢٧١

(٣) شيشرون فى الكتاب الأول فى الفقرتين الأولى والثانية والاربعين .

النجوم^(١) وإن كان المتكلمون من معزلة وأشاعة على اتفاق في إنكار هذا العلم الذي يؤدي إلى إنكار أن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الأحداث^(٢).

وفي الحق إن مصادر التنجيم الإسلامي متباينة كل التباين ، وقد تتلمذ أهلها على اليونان من أمثال بطليموس وتوسر Teucer وأنتيوخس ، وأخذوا عن مصادر بهلوية وهندية ، وضمنوا مصنفاتهم ما كان شائعاً في أرض الجزيرة والشام ومصر ، ومن هنا كان الخلط في الطرائق عند أمثال أبي معشر .

ولكن المسلمين يمتازون على من سبقوهم - فيما يقول الأستاذ نلينيو - بأنهم بلغوا شأواً بعيداً في الحسابات ، إلى جانب جهودهم في التلقيق بين مختلف الطرائق ، وقد عرضوا هذه الحسابات في رسائل فلكية إلى جانب مسائل أخرى في حساب المثلثات الكروية « ووضع الحاسبون توصلاً لهذه الغاية كثيراً من الجداول الرياضية المفصلة ، وهم يختلفون في هذه الناحية عن المنجمين اليونان والهنود الذين كانوا يقومون بحسابات مبتسرة ، وكانوا يتنكبون عن الاستبحار في الرياضيات المعقدة^(٣) » .

ومن رأى الأستاذ نلينيو - وهو حجة في هذا الصدد - أن العرب قد ظلوا على

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ١٤٦ ، وياقوت في طبعة مرجليوث ص ٣٦٠

(٢) أبو حيان التوحيدى ، المقابسات ص ١٢٤ وقد أوضح هذا بشيء من التفصيل جلد تسير Goldziher في مقاله عن موقف أهل السنة من علوم الأوائل (ترجمة زميلنا الدكتور بدوى في كتابه التراث اليونانى السالف الذكر) وفي المقال معلومات طيبة عن التنجيم وموقف المسلمين منه ، وإشارات قيمة إلى مصادر هامة فيه .

(٣) نلينيو في مادة التنجيم بالمصدر المذكور آنفاً ، وانظر في التنجيم عند الاشوريين - ومنهم الكلدانيون - والمصريين ومن إليهم من القدماء ، الفقرة الأولى والثانية والأربعين من الكتاب الأول في العلم بالغيب (شيشرون) .

جهل بصناعة أحكام النجوم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض ، ويصرح بأنه لا يكاد يجد من هذه الصناعة شيئاً في أشعار الجاهلية وأخبارها ، على وفرة ما يروى من اشتغال العرب بالكهانة والقيافة والزجر والطيرة وما يشبه ذلك من أنواع التفاؤل ، وإن كان العرب الذين استقروا خارج جزيرتهم بعد أواسط القرن الأول ، قد قالوا بتأثير الكواكب في السعد والنحس على الأخلاق ، ونقلوا هذا عن الأمم الأعجمية التي سكنت بلادهم ، أما حرفة المنجم وصناعة أحكام النجوم عند العرب في القرن الأول للهجرة ، فإنه لم يعثر على ذكرها إلا في حكايتين ينفي صحتها^(١) ، وسنعرض لهما عند حديثنا على التنجيم في قصور الخلفاء .

ويرى « تللينو » أن الأمير خالد بن يزيد + ٨٥ هـ (حفيد معاوية مؤسس الدولة الأموية) هو أول من ترجمت له كتب في الطب والنجوم والكيمياء ، وأن من المحتمل أن تكون كتب النجوم التي قيل إنها ترجمت له ، كتباً في أحكام النجوم لا في علم الهيئة^(٢) .

ولا غرابة في إشار العالم الإسلامي لأحكام النجوم على علم الهيئة ، لأن الناس من سلفيهم مولعون بكل ما يشير الغرابة ويكشف عن آفاق المستقبل المحجب ، ولعل أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية ، هو « أحكام النجوم » المنسوب إلى هرمس ، والمظنون أن ترجمته كانت قبل انقراض الدولة الأموية بسبع سنوات ، وعند ما انقرضت هذه الدولة (١٣٢ هـ ٧٥ م) واختلط العرب بالماليك والموالي - وأكثرهم من الفرس - استيقظت نهضة كان من آثارها ، شغف الخلفاء بتلك الفنون^(٣) - على ما سنعرف بعد قليل .

(١) تللينو : علم الفلك ص ٣٢٤ وما بعدها

(٢) المصدر السالف ص ١٣٧

(٣) المصدر السالف ص ١٤٢ - ٣

وفي خلافة المنصور نقل أبو يحيى البطريق ، كتاب الأربع مقالات - الذي وضعه بطليموس في صناعة أحكام النجوم ، وأثر الفرس في المسلمين عند بدء اهتمامهم بهذه الصناعة تأثيراً ملحوظاً ، فكان نوبخت والطبري من الفرس ، وشاعت الاصطلاحات الفارسية في كتب ما شاء الله^(١) .

وقد أقبل المسلمون على دراسة هذا العلم ، إقبالا ملحوظا في نشاط خصومه وأنصاره معا ، وتبينه في كثرة ما كتب عنه ، وقد ذهب « بكر » Beker في مقاله السالف إلى أن مفكرى عصر النهضة قد أخذوا عن العرب التنجيم والعرافة الهيلينية ، كما تضمنها الكتاب المعروف « غاية الحكيم » وإن كان هؤلاء - فيما يرى - أعظم من المسلمين نفاذا إلى باطن الأشياء ورغبة في اكتشاف الحقيقة .

طرق التنجيم :

في وسع المنجم المسلم أن يأخذ بثلاث طرائق كبرى لا يتجاوزها :

١ — طريقة المسائل : ويراد بها الإجابة على أسئلة تتصل بحياة الناس اليومية ، من الإخبار بغائب أو معرفة سارة أو استعادة مفقود أو نحو ذلك ، وهذه الطريقة أبسط الطرق وأشيعها .

٢ — طريقة الاختيارات : وهي اختيار الأوقات التي تلائم القيام بعمل ما .

٣ — طريقة تحاويل السنين : وتقوم على أن الصورة السماوية في زمن المولد ، تحدد طالع المولود بالدقة ، وقد اتبعها بطليموس ، وقد فصل الأستاذ « نلينو » في بيانها وبيان غيرها من طرق ثانوية عند المسلمين^(٢) .

(١) المصدر السالف ص ١٤٦ و ١٨١

(٢) نلينو Nallino في مقاله السالف وانظره أيضا مادة (Sun, moon) Stars في الدين

الإسلامي في Ency. of Religion and Ethics

علم التنجيم بين أنصاره ومضمره :

ولعل من الخير أن نبسط في تأريخنا لهذا العلم ، أدلة منكريه ورد مؤيديه عليها واحداً بعد واحد ، فإن ذلك أدعى إلى تحديد مكان هذا العلم في رءوس الفريقين معا :

انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم ، وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندي وإخوان الصفا ونفر الدين الرازي^(١) . وقد اشتغل الكندي بالنجامة ، وحقق عليه أبو معشر المنجم - فيما يروى صاحب الفهرست - وعرض المسعودي في الجزء الأول لبيان آرائه في تأثير العالم بالأشخاص العلوية ، وبهذا ربط الحوادث الأرضية بحركات النجوم^(٢) فلمعرض لموقف منكريه ومؤيديه :

قال منكره أن ليس في معرفة الكائنات قبل كونها صلاح لإنسان من الناس « لأن في ذلك تنغيصاً للعيش واستجلاباً للهم ، واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها »^(٣) - وييسط المنكرون ما يجنيه المشتغلون بالعلوم من وراء الطب والنحو والفقه والشعر والحساب والبلاغة والهندسة والهيئة ونحوها ، ثم يعقبون على هذا قائلين إن علم النجوم ليس كذلك ، فإن صاحبه وإن استقصى وبلغ الحد الأقصى ، في معرفة الكواكب وتحصيل مسيرها ، واقترائها ورجوعها و... حتى

(١) المصدران السالفان للأستاذ نلينو وتفصيل هذا في المصدر الثاني .

(٢) مصطفى عبد الرازق باشا : فيلسوف العرب والمعلم الثاني ص ٤٢ - ٤٣

(٣) قارن إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ ، ج ٤ ص ٣٢٣ (مكرراً بألفاظه) وقارن هذا

بالفقرة التاسعة من الكتاب الثاني (شيشرون) يتضح التشابه بين هذا الرأي واتجاه شيشرون الروماني .

إذا حكم أصاب ، فإنه لا يستطيع البتة قلب عين شيء ولا صرف أمر إلى أمر ولا نفى مامة قد كتبت ، ولا دفع سعادة قد أجمت وأظلت ، فالعالم الحاذق فيه المتناهي في حقائقه مضطر إلى الاستسلام للقدر ، فيتساوى بذلك مع أجهل الجاهل — هذا على افتراض الصدق فيما يزعمه أهله^(١) ، ولكن مؤيديه يردون قائلين إن الإنسان : « إذا علم ما يكون من حادث في المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها ، لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل سائر الناس ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار ، ولحر الصيف بأخذ الكن ، ولسنى الغلاء بالادخار ، ولمواضع الفتن بالهرب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم » ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا الحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله ، والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع^(٢).

ومن وجوه الإنكار أن النورى وهو أحد الأئمة المجتهدين (+ ١٦١ هـ) لقي المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الحدثن ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشتري ، وأنا أرجو رب المشتري ، وأنت تغدو بالاستشارة وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا ؟^(٣) ذلك أن المنجم إنسان ناقص الأصل زائد الفرع ، وزيادته لا ترفع

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ١٢٠ — ١٢٣ وقارن الفقرة الثامنة فى الكتاب الثانى لشيخرون تعرف وجه التشابه بينهما .

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ وقارن الفقرة العاشرة من الكتاب الثانى فى شيخرون ، فبين هذا الرأى ومذهب الرواقية تشابه ملحوظ (٣) المقابسات ص ٩٢٣

نقصانه ، لأن النقصان بالطبع والكمال بالعرض ، والمنجم بعمله يبارى الله وينازعه علمه ويتتبع غيبه^(١) .

ولكن مؤيديه يقولون إن من نظر في هذا العلم وفكر في سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها ، وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها ، وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها ، تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك^(٢) والنظر إلى ما فيه ، وليس هذا ممكنا بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها ، استطاعت أن تصعد في لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائحة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون إلى الفساد ، وتارة من الفساد إلى الكون ، وفي أقوال الأنبياء والحكماء ما يشهد بما نقول^(٣) . والنظر في هذا العلم يعين على الترقى إلى ماهو أشرف وأجل ، فهو ينبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة^(٤) .

وقيل في مهاجمته إن أحكامه وإن لم تبطل من أساسها ، فإنها لا تصح بأسرها ، وليس هذا بالهين اليسير^(٥) ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك ، وقد يقتضى

(١) المصدر السالف ص ١٣٣

(٢) أطلق العلماء كلمة العالم على كل ما في الوجود من كائنات ، وما يتصل بها من صفات وقالوا انه ينقسم إلى عالم الأفلاك أى العالم العلوى وإلى عالم الكون والفساد أى العالم السفلى أو هو عالم الأركان أو العناصر الأربعة من هواء ونار وماء وتراب أعلى سطح الفلك المحيط إلى منتهى مقعر سطح فلك الأثير (فلك القمر) ثم ما يلي الهواء ، وأما عالم الأركان من مقعر سطح فلك القمر إلى منتهى الأرض - وفوق الفلك تقوم النفس الكلية التى تسرى قواها فى أجسام العالمين جميعا - انظر إخوان الصفا ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠

(٣) إخوان الصفا ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٤) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ وكرر هذا بألفاظه فى باب السحر ج ٤ ص ٣٢٣ ١٠٠

(٥) المقاييسات ص ١٢٦

شكل الفلك في زمان ما ، ألا يصح من أحكام النجوم شيء ، وإن غاص أهلها على وقائعها ، وبلغوا إلى أعماقها^(١) .

ولكن مؤيديه يقولون إن الصناعة لا تبطل ولا تكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطاء في استدلالاتهم ، فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهلها في بعض استدلالاتهم أو أكثرها ، لأن الله هو الذي نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها ، وقد جعله الله معجزة لإدريس النبي ، « وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون في قضاياهم ، باستدلالاتهم التي نصبوها في أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، والأدلة التي نصبها الباري سبحانه وتعالى هي اختلاف حركات النبض وأصباغ البول وتغير أحوال المريض للعلل ، وهكذا أيضاً الفقهاء والحكام ، وأهل الفتوى في أحكام الدين من الحلال والحرام ، قد يصيبون أو يخطئون في قضاياهم واستدلالاتهم التي نصبها لهم الباري من آيات كتبه المنزلة . . . نخطئهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصه عن التمام »^(٢) .

وإذا كانت الحملات قد اشتدت على هذا العلم فإن ذلك لا يشير الشك في أمره ، فإن العلماء لا يشكون في علم وأدب تعلموه ، بقول المنكرين له والجاهلين به ، وكذلك الحال مع كل عاقل ، فإنه لا يترك عقيدته ومذهبه الذي نشأ عليه ، دون أن يتبين بطلانه وينكشف له عواره ، فإن دخول الشبهة على كل إنسان جائز وممكن ،

(١) المصدر السالف ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ وقارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول في شيشرون (التشابه ملحوظ بين المسلمين والرومان) وقد أكد هذا المعنى في الفقرة الثانية والثلاثين والخامسة والخمسين من الكتاب الأول .

رغم قيام الحق ووضوحه^(١). وقد كانت أحكام النجوم من أمهات الخلاف بين الناس منذ كانوا ، والعلماء في حكمها على ثلاثة أقاويل : فمنهم من يرى معتقداً أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها في هذه الأشخاص السفلية ، كما أن لها أفعالا وتأثيرات كذلك ، ومنهم من يسلم بدلالاتها ولا يسلم بفعالها وتأثيرها ، ومنهم من ينفي التأثير والدلالة عنها نفياً قاطعاً ، ويقول إن حكمها حكم الجمادات والأحجار المطروحة في البراري والقفار ، ولكن مؤيدي النجوم يقولون إن منكرى دلالاتها قد انتهوا إلى هذا لتركيهم النظر في علم الأحكام ، وغفلتهم عن تعلمه وإعراضهم عن البحث فيه ، وأما الذين أيدوا دلالاتها فقد عرفوا هذا من طول التجارب وكثرة الاعتبار في مرور الأيام والشهور والأعوام الكثيرة ، أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن . وأما مؤيدو دلالاتها وأفعالها فقد اعتبروا النجوم ملائكة له وملوكاً لأفلاكه وسكاناً لسمواته ، وقد عرفوا ذلك بعد النظر في العلوم الرياضية ، وإحكامها بعد تعلمها والتدرب عليها بطول الزمان من الدهور والأيام ، ثم ارتقوا إلى معرفة العلوم الطبيعية ومنها إلى العلوم الإلهية ؛ ثم إلى علوم النجوم ونحوه ، وانتهوا إلى تسمية المؤثرات بروحانيات الكواكب في الكائنات ، والذين ذكروا أن للنجوم مع دلالاتها أفعالا وتأثيرات في الكائنات التي تحت فلك القمر ، قد عرفوا ذلك بغير طريق أصحاب الأحكام ، وهو طريق الفلسفة الروحانية والعلوم النفسانية والتأييد الإلهي والعناية الربانية^(٢) وليس ذلك ببدع فإن علم النجوم جزء من علم الفلسفة^(٣).

(١) المصدر السالف ج ٤ ص ٣٧

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧

(٣) المصدر السالف ج ١ ص ١٠٨

وقد كان بطليموس يرى أن التأثيرات المشعة من الأجرام السماوية ، تجعل طبيعة « القابل » مماثلة لطبيعة « الفاعل » وسواء أسامنا بهذا الرأي ، أم أذعنا لرأى أهل السنة ، فإننا على الحالين مضطرون إلى التسليم بأن الأجرام السماوية لا تكون فاعلة بالحقيقة في الحوادث ، وإنما هي مجرد دلالات عليها ليس إلا ، وتأثير النجوم مرهون بطبيعة كل منها ، وبموقعها بالنسبة للأرض أو بالنسبة لغيرها من النجوم ، ولهذا تخضع حوادث العالم ، كما يخضع الناس لمزاج من كثير جدا من التأثيرات السماوية المتباينة المختلفة ، المعقدة المتناقضة إلى أقصى الحدود ، وليس عمل المنجم إلا فهم هذه التأثيرات والجمع بينها^(١) ، ويقول الكندي إن الله قد صير بعض مخلوقاته عللا لبعضها الآخر ، فالعلة تفعل في معلولها آثار ما هي لديه علة ، وليس يؤثر المفعول المعلوم في علته الفاعلة ، والنفس علة الفلك لا معلولة له ، فليس يؤثر الفلك فيها أثراً ، إلا أن من طباع النفس أن تتبع مزاج البدن ، إذا لم تجد شيئاً ..^(٢)

ولكن المنكرين يردون على هذا قائلين إن أصحاب صناعة النجوم يزعمون أنهم يعرفون الكائنات في عالم العناصر قبل كونها ، لمعرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة ، والمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالتجربة ، وهذا أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن ، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماذ وأحقاب متطاولة ، يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم^(٣) .

(١) نالينو في مقاله المشار إليه من قبل .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرازق في « فيلسوف العرب » ص ٤٢ - ٣

(٣) ابن خلدون ص ٤٧٨ - ٤٧٩ القنوجي ص ٦٧٤

علم التنجيم بين الألهام والتجربة والاستدلال :

وذهب بعض مؤيديه إلى أن معارف علم النجوم لاتنال بالعقل أبداً ، ومن بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة^(١) للسبب السالف نفسه . ولكن منكريه يقولون إن الضعفاء من المشتغلين بصناعة النجوم يذهبون إلى القول بأن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالوحى ، وقد كفونا مؤنة إبطاله ، فإن من أوضح الأدلة على فسادها أن تعلم أن الأنبياء أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم لا يتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون وحياً من الله ، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق^(٢) .

فأما المتأخرون فيرون أن دلالة الكواكب على أحداث عالم الأركان دلالة طبيعية ، من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية - كما ذهب بطليموس ومن تبعه من المتأخرين ، فإن مثل النيرين وأثرها في العنصرية ظاهري ليس في الإمكان إنكاره ، كفعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع ونحوه ، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة ونحو ذلك ، وهو لا يعتبر التنجيم من القضاء الإلهي - أى القدر - إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن ، والقضاء الإلهي سابق على كل شيء ، ذلك مايقوله بطليموس وأشياعه ، ولكن من الحق أن نقول إن القوى النجومية ليست هى الفاعل بجملتها ، بل تشترك معها قوى

(١) الغزالي فى المنقذ من الضلال ص ١٣٨ - ١٣٩

(٢) ابن خلدون ص ٤٧٩ والقنوجى ٦٧٤

أخرى فاعلة في الجزء المادى ، كقوة الأب على التوليد ونحوها ، فإذا عرفنا القوى النجومية عرفنا فاعلا واحدا من جملة أسباب فاعلة للكائن ، ذلك بالإضافة إلى أن العلم بهذه القوى النجومية يقترب به حدس وتخمين حتى يرجح الظن بوقوع الكائن ، وليس الحدس من علل الكائن ، وبغيره تصبح الصناعة مثارا للشك ، وهذا كله على افتراض أن العلم بالقوى النجومية سيقع على سداده ولم تعترضه آفة . والاستدلال يؤدى بنا إلى القول بأن الفاعل هو الله ، وسنعرف حكم الشرع فى إنكار النجوم بعد ، وبذلك تنهدم أحكام النجوم عقلا وشرعا - فيما يقول ابن خلدون^(١) .

وإذا كان من الواضح أن أهل التنجيم يصلون إلى معلوماتهم بالاستدلال والنظر والحدس والعلم بقوى النجوم ونحوها ، كان من البين أن هذا لا يدخل فى مجال الإدراك الغيبى - الذى عرفنا أنه لا يحىء اكتسابا أبدا ، وقد بلغ من صدق هذا الظن أن بعض مؤيدى التنجيم قد أعلنوا صراحة بأن المنجم لا يدعى إدراك^(٢) الغيب .

وذلك بالإضافة إلى أن القائلين بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر ، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء ، مثل هؤلاء المنجمين يستندون إلى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية - كما عرفنا الآن ، ويكونون فى غير غيبة من الحس ، ومدارك الغيب لا تكون بغير هذا أبدا^(٣) - والقول بأن العلم بأحكام النجوم يحىء عن وحى وإلهام إلهى كما قال المتقدمون من أهل هذه الصناعة ، قد وجد من ينكره من أمثال ابن خلدون على نحو ما أشرنا من قبل .

(١) المصدر نفسه ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ والقنوجى ص ٦٧٤ - ٦٧٥

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ (٣) ابن خلدون ص ٩٧

وليس ينبغي أن يحتج أهل هذه الصناعة بأن وجودها طبيعي للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم ، فإن الشر والخير طبيعتان قائمتان ليس في الوسع نزعهما من طبائع الناس ، ولكن هذا لا يمنع من السعى لاكتساب الخير ودفع أسباب الشر^(١) ، ولكن قيل إن الزجر عن النظر في هذا العلم قد ورد لأصحاب النفوس الخبيثة والعقول النيئة ، التي لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحكمة أو يتطاولوا إلى غرائب الفلسفة ، وإباحة النظر إلى هذا العلم والتسليم بما قيل في حسناته ، إنما ورد من أجل الممتازين في عقولهم ونفوسهم معاً^(٢) . على أنه إذا كان من الممكن - على طريق إجراء العادة - أن يكون بعض الحوادث سبباً لبعضها الآخر ، فليس ثمة دليل على كون الكواكب أسباباً للسعادة وعللاً للنحوسة ، لا حساً ولا عقلاً ولا سمعاً ولا شرعاً^(٣) .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه في قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء ، وقد ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الغابر ، حين أتى عليه قيام الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيكو س + ١٥٤٣ بوجه خاص ، ومن أجل هذا ظل قائماً في البلاد التي لم تغزها الحضارة الغربية ، وإن افتقد جلاله الذي

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والقنوجي ص ٦٧٧

(٢) المقابسات لأبي حيان التوحيدى ص ١٣٨

(٣) حاجي خليفة ج ٢ ص ٣٨١ وقد فصل فيه هذا الرأي ، وردد القنوجي صدى ما يقوله في ص ٦٧٣ ولعلنا نلاحظ تشابه كثير من أدلة تأييد هذا العلم وإنكاره معاً في موقف أنصاره من الرواقية وخصومه من أتباع الأكاديمية الجديدة كما يظهر في كتاب شيشرون بقسميه الأول والثاني .

كان له في العصور الوسطى ، ومن هنا نلاحظ أن قضاة اليمن لا يزالون - فيما يذكر نلليينو - يزالون صناعة أحكام النجوم إلى يومنا الحاضر^(١) .

وفي الآثار الإسلامية وفرة من الأدلة تشهد بتسلسل التنجيم إلى قصور الخلفاء ، وأثره الملحوظ في تدبير الشؤون العامة والخاصة ، سياسية أو اجتماعية أو غيرها :

التنجيم في قصور الخلفاء :

يقول ابن خلدون - في وفيات الأعيان - أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ، استدعى منجما وقال له : هل ترى في علمك ملكا يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذي يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله ، « بذلك سمّيتي أمي » وكتب وصيته^(٢) .

وقد كان جعفر المنصور - ثاني الخلفاء العباسيين - يدنى المنجمين من حضرته ، ويستشيرهم في أموره ، وكان نوبخت الفارسي^(٣) يصحب المنصور ، ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبو سهل . ويروى المؤرخون - أمثال ابن أبي أصيبعة وأبي الفرج والتقي - أن المنصور لما حج حجته التي توفي فيها ، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين همّ ببناء بغداد (١٤٥ هـ) وضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا في حصرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزاري والطبري

(١) نلليينو في مادة التنجيم المشار إليها من قبل .

(٢) ولكن نلليينو يرفض التسليم بهذه القصة - كما أشرنا من قبل - لأنها لم ترد في كتب التاريخ المفصلة ، ولأن التنجيم لم يكن معروفا عند المسلمين في هذا العهد (أنظر نلليينو: علم الفلك ص ٣٣١)

(٣) يقول المسعودي في مروج الذهب (ج ٨ ص ٢٩١ طبعة أوربية) إنه كان مجوسيا وأسلم على يد المنصور .

من المنجمين^(١) . وروى البيروني أن ابتداء البناء كان في الخامس والعشرين من ربيع الثاني ١٤٢ للهجرة ، وأن نوبخت هو الذي تولى اختيار الوقت الملائم ، وأن هيئة الفلك في ذلك الحين قد اتفقت على مثل هذا الشكل .

وقد روى أبو معشر المنجم ، عن ابن منصور وفئة من أقرانه في التنجيم ، أن المأمون قد طلب إليهم أن يأخذوا طالعا لدعوى إنسان ، ومعرفة مدى الصدق في دعواه ، فأحكموا طالعه وصوروه ، فوقعت الشمس والقمر في دقيقة واحدة في الطالع ، والطالع الجدى والمشتري في السنبلة ينظر إليه .. !! فقال جماعتهم إن ما يدعيه صحيح ، وقال ابن منصور : « إن تصحيح الذي يطلبه لا يصح ولا يتم له ولا ينتظم ... لأن صحة الدعوى من المشتري أو تثليث الشمس من تسديدها ، إذا كانت الشمس غير منحوسة ، وهذا الحال هبوط المشتري ، والمشتري ينظر إليه نظر موافقه ، إلا أنه كاره لهذا البرج ، والبرج كاره له ، ولا يتم التصحيح والتصديق ، والذي قالوا من حجة زهرية عطاردية ضرب من المخرقة والتزويق والخداع ، فأثنى عليه المأمون وأنبأهم بدعوى الرجل في النبوة ، وما زال به حتى كف عن دعوته^(٢) .

على أن كتب التاريخ تشهد بأن الخلفاء والحكام لم يكونوا على اتفاق بصدد الاعتقاد في صدق المنجمين ، فالمسعودي يروي عند وصف وقعة مسكن بين عبد الملك ابن مروان ومصعب بن الزبير عام ٧٢ هـ ، أن الأول كان معه منجم مقدّم ، وقد أشار على عبد الملك ألا يحارب له خيل في ذلك اليوم ، فإنه منحوس ، وليكن حربه بعد ثلاث ، يُصَبْ نصرا ، فبعث محمد إلى أخيه عبد الملك يقول « وأنا أعزم على نفسي

(١) اليعقوبي في البلدان ص ٢٣٨ طبعة ليدن الثانية عام ١٨٩٢ م

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٢٥ - ٦

لأقَاتِلْنِ وَلَا أَلْتَفِتْ إِلَى زَخَارِيفِ مَنْجَمِكَ ، والمحالات من الكذب ، فقال عبد الملك
للمنجم ولمن حضره ، ألا ترون ! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال اللهم إني مصعباً
أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت أدعو لنفسي ، « اللهم انصر خيرنا لأمة محمد »
واقْتَتَلَ محمد وأبلى ولكنه قتل^(١) !...

وإذا كان نلّينو يأبى التسليم بهذه القصة^(٢) . استناداً إلى رأيه السالف الذكر ،
فإن مجرد رواية المسعودي لها ، تحمل الدلالة على أن التنجيم لم يكن موضع تسليم
وإذعان عند الجميع .

فروع النجوم :

حسبنا هذا مما قيل في علم أحكام النجوم ، وقد فرعه بعض مؤرخيه إلى علم
الاختيارات ، والرمل والقرعة والطيرة^(٣) ولا يسلم بعضهم بهذا التفريع .
وشبيه بعلم النجوم في زعم أصحابه ، إدراك الغيب عند أهل الرمل الذي استنبطه
لذلك قوم من العامة ، وأقاموه على أوضاع تحكّمية وأهواء اتفاقيّة ، ونسبوه إلى
النبوات القديمة (دانيال أو إدريس) . ثم أهل حساب النيم الذين زعموا أنهم
يعرفون عن طريقه الغالب والمغلوب في الحروب ، ثم أصحاب الزايرجه - ولا سيما
تلك التي تنسب إلى محمد السبتي ، من أعلام متصوفة المغرب في أواخر المائة السادسة ،
ولا ينكرها بعض المفكرين - استناداً إلى ما فيها من تناسب ، هو السر في الحصول
على المجهول من المعلوم كما يحدث عند أهل الرياضة ، ولهذا نسبت إليهم ، ولكن

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٥ ص ٢٤٤ - ٦ طبعة أوربية .

(٢) تلّينو : علم الفلك ص ٣٣١

(٣) ابن خلدون ص ٩٧ وقد فرعه « القنوجي » إلى مثل ما أسلفناه .

الذين يقولون هذا يأتون اعتبارها — وغيرها مما سلف الآن — من أدوات الإدراك الغيبي ، لأن الغيب لا يدرك صناعة وبضاعة كما قلنا من قبل^(١) .

وقد أورد « لين » Lane صورة زاوية يستخدمها المسلمون عند التردد في الإقدام على عمل أو الإحجام عنه ، وتتلخص في مربع يرسم ويقسم إلى مائة خانة صغيرة ، يكتب في كل منها حرف من الحروف كيفما اتفق ، وقبل الإقدام على استفتاءها يقرأ الإنسان الفاتحة ، ويعقب عليها بالآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يضع أصبعه عفواً على إحدى خانات الجدول ، ويسجل الحرف الذي يقع عليه أصبعه ، ثم يدون الحرف الخامس الذي يليه ، ويكرر تدوين كل خامس حرف يجيء بعد ذلك ، حتى يصل إلى الحرف الذي بدأ به ، ومن مجموع هذه الحروف — الخوامس — وهي عددها بالطبع عشرون ، يتألف الجواب ..! وقد أجرى « لين » هذه التجربة في جدول في كتابه ، واستخلص جواباً معقولاً ، ولكنني أجريت هذه التجربة بنفس الطريقة التي رسمها ، فكان مجموع الحروف بترتيبها السالف ، لا يحمل معنى معقولاً ..!! ويقول « لين » إن أحب الزايات عند المسلمين أكثرها تعقيداً ، وأن عملياتها تعتمد على حساب أحكام النجوم^(٢) .

لعل من الخير ألا نفرع من الحديث عن أساليب التنبؤ دون أن نعرض في شيء من الإيجاز لموقف مفكرى الإسلام من علمي الفراسة والسحر ، لأن كليهما قد تشعب عند بعض أهله ومؤرخيه حتى شمل التكهن بالغيب ، وقد عني المسلمون بهذين العلمين تأييداً وإنكاراً ، ولهذا لزم الحديث عنهما معا :

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والقنوجي ص ٦٧٧

(2) E. W. Lane, Modern Egyptians p. 266-7

علم الفراسة وأشباهها

اعتبر بعض المؤرخين^(١) العرافة من فروع الفراسة ، ويكاد ينقصد الرأى على أن العرافة قد سخرت لمعرفة الغيب ، وإن رفض جمهرة رجال الشرع ومن ذهب مذهبهم التسليم بصحتها ، واعتبر البعض الكهانة من فروع العرافة ، كما أسلفنا الإشارة من قبل ، وإذا تخطينا الاضطراب في التصنيف والتفريع عند هؤلاء المفكرين ، لاحظنا أن بعض كبار أهلها ومؤرخيها يوسع في نطاقها حتى تشمل التكهن بالغيب - كما سنعرف الآن .

ماهيتها وآفاقها :

والأصل في الفراسة أنها العلم الذى يستعين بما ظهر من أحوال الناس وهيئتهم من ألوان وأشكال وأعضاء - على معرفة ما خفى من أخلاقهم وطباعهم ، أو هو في الجملة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن^(٢) وبرروا وجوده بقولهم إن المزاج إما أن يكون النفس أو آلة لها في أفعالها ، وعلى كلا التقديرين السالفين لا بد أن يكون الخلق - ما ظهر منه وما بطن - تابعا للمزاج ، وإن صح هذا كان الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن ، جاريا مجرى الاستدلال بحصول أحد المتلازمين على

(١) القنوجى ، أبجد العلوم ج ١ ص ٤٠

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٧٢ والقنوجى ص ٥٥٦ -

حصول الآخر ، ولا شك أنه نوع من الاعتبار صحيح ، ويؤيده الكتاب والسنة والعقل جميعا ، على نحو ما أبان أهل العلم ومؤرخوه^(١) .

تفريع الفراسة :

ولكن بعض مؤرخيه قد شطروه شطرين : أحدهما يحصل بالتجربة التي دلت على أن الظاهر ينبئ عن الأخلاق الباطنة^(٢) ، فهو علم يقيني الأصول ظني الفروع^(٣) وثانيهما الفراسة الشرعية التي تحصل بنور اليقين بوساطة تركيبة النفس عن الأخلاق الرديئة ، وتصفية القلب عن الصفات الذميمة ، حتى ينظر بنور الله فيكون الله بصره وسمعه ، إن الله لا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء^(٤) ، وفي هذا النوع من الفراسة يقع في القلب خاطر يحدد حال الإنسان وصفته ، دون الاستعانة بعلامة جسمانية أو إشارة محسوسة ، والسبب فيه ما ثبت من أن جواهر النفوس الناطقة مختلفة بالماهيات ، فمنها ما يبلغ غاية الإشراف والتجلى عن العلائق الجسمانية ، ومنها مالا يكون كذلك ، وكما أن النفس تقوى على معرفة الغيوب إبان النوم ، فكذلك النفس المشرقة الصاقية قد تستطيع معرفة الغيب حال اليقظة ، وتختلف مثل هذه النفوس كما وكيفاً^(٥) وهكذا تسلمت الفراسة إلى ميادين التكهن بالغيب ، وأيدوها

(١) فخر الدين الرازي في كتابه الفراسة ص ٤ - ٦ (وقد نشره زميلنا الدكتور يوسف مراد مع ترجمته إلى الفرنسية والتمهيد له بمقدمة علمية قيمة) وفي التهانوي ج ١ ص ٤٤ ، وج ٢ ص ١١٢٣ عرض للرأي السالف في صلب الكلام .

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ (٣) الرازي ص ٧

(٤) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣

(٥) الرازي في الفراسة ص ٦ ، والتهانوي في كشفه ج ٢ ص ١١٢٣

بآيات الله وأحاديث الرسول وشواهد العقل ، وقد قال النبي اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وقوله كان قبلكم من الأمم محدثون ، فيه إشارة إلى الفراسة الطبيعية - وهي التي فطر الله النفوس عليها ، فالفراسة الشرعية هي معاينة المغيبات بالأنوار الربانية ، فمن راقب أحواله وأنفاسه ، وتجنب المعاصي - ما صغر منها وما كبر ، وتحلى بالأخلاق النبوية وتحلى بالآداب المصطفوية ولم ير خيرا ولا شرا ولا نفعاً ولا خيراً إلا من الله ... كانت فراسته كالشمس تسطع أنوارها ، ولم ينطق إلا صدقا وحقا^(١) وعلى هذا فمن معانى الفراسة اطلاع القلب على مجاهل الغيب بنور من الله^(٢) وهذا اتجاه صوفي في تفسيرها^(٣) وعلى هذا فالفراسة إما أن تكون قائمة على مظهر من أحوال البدن ، ويجرى في هذا النوع التعليم والتعلم ، وإما أن يقوم الحكم فيها على مجرد القوة الحدسية ، وتلك هي فراسة الأنبياء وأكابر الأولياء^(٤) .

قيل أن رسول الله يقول : « كان فيمن قبلكم محدثون وأنه لو كان أحد فعمر ابن الخطاب ، والمحدث المصيب في ظنه وفراسته كأنه حدث بالأمر - فيما يروى طاشكبرى زاده^(٥) أو هو الملهم الذي يلقي في نفسه الشيء فيخبر به حدسا وفراسة فيما يقول ابن الأثير^(٦) . وقد كان عمر يقول « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » وتروى في أمر فراسته روايات « قد يصدق منها القليل ، وتتسرب المبالغة إلى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة » فمن ذلك أنه أبصر أعرابياً نازلاً من جبل ،

(١) طاشكبرى زاده ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ (٢) التهانوى ج ٢ ص ١١٢٣

(٣) في الرازي ص ٧ وفي التهانوى ج ٢ ص ١١٢٣ ما يؤيد هذا

(٤) الرازي ص ٧ ولم يعن الرازي في كتابه إلا بالصنف الأول وقد شرح فيه كل ما لا بد

من معرفته . (٥) مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٢

(٦) النهاية في غريب الحديث ج ١ ص ٢٤٠

فقال هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعراً لو شاء لأسمعكم ، ثم سأل الأعرابي :
من أين أقبلت ؟ فقال من أعلى الجبل ، فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال أودعته وديعة لي ،
قال وما وديعتك ؟ قال بنى لي هلك فدفنته ، قال فأسمعنا مرثيتك فيه ، فقال وما يدريك
يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تفوهت بذلك ، وإنما حدثت به نفسي ؛ ثم أنشد أبياتاً
ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له في حلمه كان ذا وفي قدره
موتاً على العباد فما يقدر خلق يزيد في عمره

فبكي عمر حتى بل لحيمته ثم قال : صدقت يا أعرابي !..^(١)

ومثل هذا يقال في أبي بكر الصديق ، وقد روى عنه صاحب «اللمع في التصوف»
شواهد تنبيء بصدق فراسته^(٢) .

والحديث عن الفراسة ، يجرنا إلى الحديث عن طرق أخرى لإدراك ضروب من
الغيب ، إذ اعتبرت هذه الطرق عند بعض المؤرخين من فروع الفراسة^(٣) ، وإن
رفض بعضهم التسليم بذلك^(٤) ، ولنبدأ بالحديث عن :

قيافة الأثر والبسر :

وتسمى قيافة الأثر بالعيافة أحياناً ، وهي القدرة على معرفة الهرب من الناس ،
والضوال من الحيوان بتتبع آثار أقدامها وأخفافها وحوافرهما في الطرق القابلة للأثر ،

(١) العقاد : عبقرية عمر ص ٣٤ وقد ذكر له مثالين آخرين .

(٢) أبو نصر السراج الطوسي : اللمع في التصوف ص ١٢٣ من نشرة نيكلسون .

(٣) كالتونجي في أبعاد العلوم ج ١ ص ٤٠ (٤) الرازي ص ١١ - ١٧

ويكون هذا بقوة القوة الباصرة والمتخيلة والحافظة^(١) . وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الإنسان على الاشتراك في النسب والولادة وسائر وجوه الأخلاق والأحوال ، وقد اشتهر في هذا العلم بنو مدج وبنو لخب ، وهو يعتمد على قوة القوة الباصرة والحافظة ، فينشأ عن طبيعة في أصحابه ، ولا يجيء تعلمها واكتسابها ، ومع هذا فهو حدس وتخمين ، لا استدلال ويقين ، وإذا كان الشافعي قد سلم به ، فإن أبا حنيفة قد أنكره^(٢) .

نماذج من قيافة الأرض :

وقد روى المسعودي أن بين أرض مصر والشام ، قوماً من العرب يتناول الإنسان من ثمر نخيلهم ، فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فإن رأوه بعد مدة عرفوا أنه الآخذ لثمرهم ، ولا يكادون يختلفون في ذلك ..! وقد قفّت القافة بقريش حين خرج النبي وأبو بكر إلى الغار حتى أتت بابه ، على حجير صلد وصخر أصم وجبال عالية لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تظهر فيه الأقدام ، حجبهم الله عن نبيه بما كان من نسج العنكبوت وما سفت إليه الرياح^(٣) ، وحر القائف وقال ها هنا تنتهي الأقدام ، والذين معه « لا يرون على الصلد ما يرى ولا على الصوان ما يشاهد ، وأبصارهم سليمة والآفات عنها مرتفعة والمواقع زائلة »^(٤) .

-
- (١) الرازي : الفراسة ص ١٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ والقنوجي ص ٥٤٩ وحاجي خليفة ج ٢ ص ٤٤ والأبشهي ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها
- (٢) حاجي خليفة ج ٢ ص ١٢٥ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٠-١ والرازي ص ١٢-١٣ وانظر الأبشهي ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها .
- (٣) التمس تحقيق ذلك في حياة محمد للدكتور هيكل باشا ص ٢٠٨ طبعة ثانية والأبشهي ج ٢ ص ١٠١-٢ (٤) المسعودي : ج ٣ ص ٣٤٢ - ٤ طبعة أوربية .

وقيل إن أولاد نزار بن معد الأربعة كانوا في طريقهم إلى ملك نجران ، فرأوا أثر بعر في مغارة ، فقال أحدهم إنه لأعور ، وقال ثانيهم إنه لأبتر - مقطوع الذنب - وقال ثالثهم إنه لأزور - معوج الصدر - وقال رابعهم إنه لشروء...! ثم لقيهم صاحب البعر وسألهم عنه ، فكرر كل منهم الوصف الذى ذهب إليه من قبل ، وأيقن الرجل بصدق ما قالوا ، فطلب إليهم أن يدلوه عليه ، فقالوا : والله ما حسسنا لك ببعر ولا رأيناه...! فتبعهم الرجل حتى إذا بلغوا الملك ، صاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك لقد أخذ هؤلاء بعيرى ، ثم أقسموا بأنهم لم يروه ، فدعا به الملك وسأل ضيوفه عن أمره ، فقال الأول رأيت البعر مجتهداً فى رعى الكلاً من شق لحسه ، والشق الآخر واف كثير الالتفاف لم يمسه ، فقلت إنه أعور . وقال الثانى رأيت يرمى ببعره - رجيعه - مجتمعا ، ولو كان ذا ذيل لفرق هذا الرجيع بتحرك ذنبه ، فقلت إنه أبتر ، وقال الثالث رأيت أثر إحدى يديه ثابتا والآخر فاسدا فعلمت أنه أزور . وقال الرابع : رأيت يرمى الشقة من الأرض ثم يتمدها فيمر بالكلاً الملتف الغض فلا يأخذ منه ، حتى يأتى ما هو أرق فيرمى فيه ، فعلمت أنه شروء...! فقال الملك صدقتم ، وقال للرجل التمس بعيرك^(١) .

قيافة البشر :

أما الآخذون بقيافة البشر ، فيقولون إن الأشباه تنزع ، ولا يجوز أن يمنع التشابه بين الولد وأبيه أو أحد من أهله ، من جهة من الجهات ، وقيل إن فى الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها^(٢) ، ومن هنا كان نظر القائف إلى

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٢ طبعة أوربية وقد عقب بذكر قصة أخرى بين فيها صدق الفراسة عند هؤلاء . (٢) المصدر نفسه ص ٣٣٣ وانظر القنوجى ص ٥٨٦ - ٥٨٧

القدم ، لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة ، وقد يخالف الولد أباه في كنهه أفعاله ومظاهر خلقه ، ولكنه في الأغلب يوافق في القدم^(١) .

ومن الأمثال التي ترد في معرض الحديث عن الاستدلال بتركيب الإنسان على أخلاقه ، أن تلامذة سقراط - فيما يقول صاحب تاريخ الحكماء - قد أرادوا أن يختبروا فراسة أقليمون ، فقدموا إليه صورة دقيقة رسموها لأستاذهم ، فلما تأملها وأمعن فيها ، قال - وهو لا يدري لمن هي - هذه صورة زجل يحب الزنا ، قالوا كذبت ، فإنها صورة بقراط ، فقال لا بد لعلمي أن يصدق فأسأله ، فلما رجعوا إلى أستاذهم قال صدق أقليمون ، فإنني أحب الزنا ولكني أملك نفسي وأضبط مابي من هوى جامع^(٢) .

ولكن هذا العلم مثار للشك عند بعض المفكرين ، لأن الناس يتشابهون في حد الإنسانية ونحوه من الحدود ، ويفترقون في غير هذا من الصور ، وليس وجود الأغلب من الأشباه ، مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه ، دون أن يخالف ، من حيث أوجبه قضية العقل للخلاف والتباين ، والذين أذعنوا للتسليم بقيافة البشر من أهل الشريعة وفقهاء الأمصار ، استندوا إلى تعجب النبي منها ، وتصديقه محرراً المدلجى ، والذين أنكروها من فقهاء الأمصار ، استندوا إلى الدلائل الدالة على فساد الحكم فيها ، وعلى أن النبي الحق ولدأ بأبيه مع عدم التشابه بينهما ، وبحجة أن العرق قد ينزع ، وأنباء الإبل تشهد بصحة ذلك^(٣) .

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٣٨

(٢) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦ والقنوجى ٥٨٦ - ٧

(٣) المسعودى ج ٣ ص ٣٣٣ - ٥

أَسْبَابُ الْفِرَاسَةِ :

ويدخل في هذا الباب محاولة استكناه الأعمار في طولها أو قصرها ، وما ينتظر الإنسان من سعادة أو شقاء ، و ثراء أو عدم ، من الدلالات التي تحملها الخطوط القائمة في الأكف والأقدام والجياد . استناداً إلى ما بينها من تقاطع وتباين وطول وعرض وقصر ، وما يفصل بينها من فُرَجٍ متسعة أو ضيقة ، ويسمون هذا بعلم الأساير^(١) . ومعرفة أحوال العالم الأكبر من حروب وخصب وجذب ، من خلال الخطوط والأشكال التي ترى في أكتاف الضأن والمعز إذا قوبلت بشعاع الشمس ، ويسمون هذا بعلم الأكتاف . وقلما يحرص أهله على معرفة الأحوال الجزئية للإنسان بالذات ، ولكنهم يحاولون معرفة ما يعتور العالم من غلاء ورخاء وحروب ونحوها ، بأخذ ألواح الكتف قبل طبخه ، وإلقائها على الأرض أولاً ، ثم النظر فيها والاستدلال بأحوالها من الصفاء والكدر والحمة والخضرة على الأحوال الجارية في العالم . وقد ردَّ البعض هذا العلم إلى الإمام علي بن أبي طالب^(٢) ، ولكن مثل «علي» في تقواه وفضله ، وورعه وذكائه ، لا يشتغل بمثل هذه العلوم ، وقد نهى وشدد النهى عن استطلاع الغيب بمثل هذه الأساليب^(٣) ، ومن قبيل هذا علم الاختلاج الذي يبحث في كيفية دلالة الاختلاج في أعضاء الإنسان - من الرأس إلى القدم -

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٨ والقنوجي ٣١١ والرازي ص ١١

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ وحاجي خليفة ج ١ ص ١٠٤ والرازي ص ١٢

(٣) وما أصدق العفاد حين يقول في التعقيب على نسبة علم الجفر إلى الإمام علي « ومن المحقق الذي لا خلیجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحاج بن يوسف وفتنة الزیج وغارات التار وما إليها ، هي من مدخول الكلام عليه وفي إضافة النساخ إلى الكتاب بعد وقوع الحوادث بزمن قصير أو طويل » (عبقريّة الإمام ص ١٧٧ طبعة أولى) .

على ما ينتظر أن يصيبه من خير أو شر ، وإن كان عند مؤرخيه علما لا يوفق فيه لضعف دلالاته وغموض استدلاله^(١) .

وقد اقتضت حياة الترحال عندهم ، التعرف إلى أحوال الأمكنة — من غير دلالة على هذا — بالآمارات السماوية تارة والأرضية أخرى (كشم رائحة التراب في كل بقعة) وأطلقوا على هذا علم الاهتداء بالبرارى والقفار ، فساعدهم هذا على تسيير القوافل على هدى وبصيرة من غير تيه أو ضلال^(٢) .

ومن قبيل هذا معرفة استنباط المياه من الأرض عن طريق الآمارات الدالة على وجودها ، ومن قربها أو بعدها ، بشم رائحة تراب منها أو رؤية نبات أو حيوان معين ، ويكون هذا بتوافر الحس الكامل والتخيل القوى ، وقد أطلقوا على هذا علم الريافة^(٣) . ويشبه هذا علم الاختيارات^(٤) الذى ينصب على البحث فى أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر ، ويحدد الأوقات التى ينبغى الاحتراز فيها عن مزاوله الأمور أو يستحب فيها الإقدام عليها^(٥) . ومثل هذا يقال فى علم القرعة^(٦) وعلم نزول الغيث . وعلم الشالات والخيالان والجفر والجامعة والزايجه والرمل وغيرها^(٧) وحسبنا الآن أن نشير إليها موجزين . وسنعود إلى التعليق على هذه العلوم ونماذجها السالفة عندما نعرض إلى بيان موقفنا من التكهن الصنعى .

-
- (١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٤
 (٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩١ وحاجى خليفة ج ١ ص ١٣٤ والقنوجى وغيره
 (٣) الرازى ص ١٥ وكذلك حاجى خليفة ج ١ ص ٤٥٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٢ وانظر فى المصدر الأول ص ٧٣ والقنوجى ٣٥٢ فى استنباط المياه والمعادن
 (٤) اعتبره ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٧ والقنوجى ص ٤٠ من فروع النجوم .
 (٥) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٥
 (٦) التهانوى ج ٢ ص ١١٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ١٠٦ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ والقنوجى ص ٥٨٤
 (٧) تنظر فى هذه العلوم طاشكبرى زاده وحاجى خليفة والقنوجى والرازى والتهانوى وغيرهم

علم السحر

أدرك الاضطراب تعريف السحر وتحديد آفاقه - كما أدرك الفراسة من قبل -
واتسع معناه عند البعض حتى شمل ميادين التكهن بالغيب ، رغم أن مؤرخيه ليسوا
على اتفاق في تحديد موضوعه :

موضوعه :

تبدو مظاهر هذا الاختلاف في تعريف السحر عند باحثيه ، فأما أهل الفقه فقد
نظروا إليه باعتباره عملاً يتقرب به المرء من الشيطان ، ومعرفة تفاد من الجن ، وأما
الحكماء فالأرجح عندهم أنه الإتيان بخارق ، عن مزاولة قول أو فعل محرم في الشرع ،
أجرى الله سنته بحصوله ابتلاء^(١) ، وفي هذا الاتجاه روح إسلامي واضح ، والواقع
أن الفلاسفة قد أقاموا السحر وحددوا آفاقه بشكل أوضح من هذا ، إذ قالوا إن
السحر والطلسمات من آثار النفس البشرية ، ودللوا على صحة هذا بأن للنفس
آثاراً في البدن تجرى على غير المجرى الطبيعي المألوف ، وتسير على غير أسبابه
الجسمانية ، وقالوا إن الساحر لا يحتاج إلى معين لكي يؤثر في غيره - كما هو الحال
في صاحب الطلسمات ، والسحر اتحاد روح بروح ، وليس ائتلاف روح بجسم

(١) التهانوي في كشافه ج ١ ص ٦٤٨

— كالطلسم — وهو — السحر — عند الفلاسفة فطرى لا يجىء اكتساباً ، إن صاحبه مفسطور على تلك الجملة الخاصة بذلك النوع من التأثير^(١) .

ولكن بعض المفكرين قد وسّع معناه حتى شمل آفاقاً جديدة غير الآفاق التي أسلفناها ، فقالوا إن من السحر ما هو بيان وكشف عن حقيقة الشيء ، وإظهاره بسرعة العمل ودقته ، « ومنه الإخبار بما يكون قبل كونه ، والاستدلال بعلم النجوم وموجبات أحكام الفلك^(٢) » . فاعتبروا النجامة سحراً ، وقال بعضهم إن الساحر قد يقوم بإخبار نبي بعينه ، فيبعث النبي حياً يجيب عما يسأل عنه من شئون الغيب ، وتشهد بهذا قصة « طالوت » ملك اليهود ، ونبههم « شمويل » الذى بعثه الساحر حياً وأنباؤ الملك عن عاقبة أمره ، وغضب الله على بنى إسرائيل^(٣) .

ذلك أن أهل فلسطين قد ساموا اليهود الهوان ألواناً ، حتى إذا كان نبههم « شمويل » — صمويل — استوحى الله فى اختيار ملك يتولى قيادتهم فى قتال أعدائهم ، فكان « طالوت » فأذعنوا لطاعته بعد تردد ، فتخير منهم من لا تشغله شئونه الخاصة عن محنة القتال ، ومضت هذه القلة تحت رايته إلى ملاقاتة الأعداء ، الذين كثر عديدهم حتى أثار الفزع فى قوم طالوت ، ولكن الله أجاب دعاء هؤلاء وهياً لهم النصر المبين على القوم الكافرين^(٤) ، وكان مصرع كبير أعدائهم « جالوت » على يد — داود عليه السلام — مع حداثة سنه وقمأة جسمه ، ولكن طالوت

(١) ابن خلدون ص ٤٣٧ — ٤٣٨ وقد فصل الحديث فيما أجمعناه .

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ (٣) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣٠

(٤) اقرأ هذه القصة بالتفصيل فى التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازى

ج ٢ ص ٢٩٣ — ٣٠٤ فى تفسيره للآيات ٢٤٦ — ٢٥١ من سورة البقرة (طبعة مصر الأولى عام ١٣٠٨ هـ)

فيما تقول كتب الأخبار التي تجرى مجرى التوراة عند اليهود — لم يرع الله في معاملة المغلوبين ، نخب هؤلاء لقتاله ، وأزعجته كثرة عددهم ، فطلب إلى خاصته أن يأتوه بساحر يسأله عن عاقبة أمره — وكان شمويل قد قضى نخبه — فجاءوه بساحرة اطمأن إليها وسألها أن تحي له نبياً ، فسأته أي الأنبياء يختار ، فاختار « شمويل » فبعثه حياً ..! ولكنها فزعت عند رؤيته وارتاعت ، فسألها « طالوت » عمن رأت ، فقالت إنه شيخ بهي « مثل ملائكة الرب ، مشتمل ببرنس قد صعد من الأرض . فأدرك طالوت أنه شمويل ، فدخل إليه وسجد بين يديه » ، فقال شمويل يا طالوت لم أرجعتني وأحييتني ؛ قال لما ضاقت بي الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياي ، وزوال عناية الله عني ومنعه الأحلام مني ، دعوتك لأستشيرك في أمري ، فقال شمويل إن الله تعالى قد نقل الملك إلى صاحبك داود ، وغضب عليك وعلى بني إسرائيل ، جزاء ظلمكم للعالمين وقتلكم مواشيهم ، وسيكفل النصر لأعدائكم ، ثم خر مغشياً عليه ، فعرفته الساحرة ومن كان معها ، فأقبلوا عليه حتى أفق وأضافهم ليلتهم وانصرفوا مصبحين ، ولما التحمت الحرب ، حطت الهزيمة على العبرانيين ، وكثر القتل فيهم « وقتل طالوت ثلاثة بنين واتسكا هو على حربته فأخرجها من ظهره ، فاجتمع بنو إسرائيل على تملك داود ، فدافع بهم من ناوأوهم ^(١) .

ويعمم إخوان الصفا مدلول السحر حتى يشمل الأنبياء ، فمن السحر في رأيهم ما اختص به الأنبياء والحكماء ، ومنه ما اقتصر العلم به على النساء والعرب ، وقد سمي الأنبياء في الأمم الخالية سحرة ، لأنهم أظهروا من المعجزات الباهرات ما حير الألباب ، كما سمي الحكماء قديما بالسحرة لأنهم كانوا يخبرون بالكائنات ، فيتكلمون

بالإنذارات والبشارات بما يكون في العالم من السرور والخيرات ونزول البركات والنعيمات ، فنسبوههم إلى الكهانة لما عميت عليهم الأنبياء ، ولم يعرفوا النبوة والأنبياء عليهم السلام ، وزعموا أن لهم أصحابا من الجن يأتونهم بأخبار السماء فيعلمون بذلك ما كان وما يكون » « وفي آيات القرآن ما يشهد بصحة ما نقول ، مع أن سحر الأنبياء يشبه العلم بالأمور التي ليس في وسع البشر العلم بها ، إلا عن طريق الوحي والتأييد الإلهي ، وأخذها عن الملائكة ، وعن هذا يجيء الإخبار بالغيب بما كان وما يكون ، ولهذا كانت الجاهلية تقول عمن اعتنق الإسلام إنه قد صار إلي دين محمد ، وقد عمل فيه سحره ، وثمة سحر باطل يقوم على تنميق الباطل وإنكار الحق وإدخال الشكوك على المستضعفين حتى يصدوا عن دين الله ^(١) . وقد شمل السحر النجامة والكهانة أيام موسى ^(٢) ، مع أن النجامة كانت في الجاهلية تشمل الزجر والكهانة ^(٣) .

مظهر السحر في مجال الإدراك الغيبي :

حسبنا هذا إجمالا للسحر في مختلف آفاقه ، ولنحاول الآن بيان مكانه في مجال الإدراك الغيبي — إن كان له مكان بعد هذا التضارب في تحديد آفاقه :

ورد فيما أسلفناه ما يشير إلى أن الإخبار بالغيب ، يدخل في نطاق السحر فيما يدعى أهله ، ومن أجل هذا عرضنا للحديث عن السحر لنبين عن مدى ما في هذا الادعاء من حق أو باطل ، فإن أصناف السحر السالفة الذكر ، لا تعتبر غيباً بالمعنى

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ — ٣٤٩ وبعد قصة طويلة تؤيد بها هذا القول تعود إلى

الحديث في ص ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٠٢ (٣) المصدر نفسه ص ٣٦٥ وقد حذفنا ما يلي هذا

من حديث عن طرق السحر وأنواعه ، لضيق المقام ، وكنا قد رجعنا في تأريخها إلى طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧ و ٣٠٤ — ٥ وابن خلدون ص ٩٥ و ٤٣٤ والتهاونى ج ١ ص ٦٤٩ — ٦٥١ وحاجي خليفة والقنوجي ... الخ .

الإسلامى الذى أسلفناه — إذا استثنينا نوعاً واحداً هو سحر الأنبياء — فيما يقول إخوان الصفا — فإن ما عداه يحىء اكتساباً بريضة النفس أو إجراء عزائم أو تسخير كواكب ، أو استعانة بجن وأرواح أرضية أو نحو ذلك من طرق ، ولكننا سلمنا من قبل بأن الكهانة تدخل فى نطاق الإدراك الغيبي ، رغم استعانة أهلها بالجن والشياطين ، لأن مرجع الأمر فيها إلى طبيعة أصحابها ، وقد عرفنا أن الفلاسفة يقولون إن السحر مرجعه إلى الاستعداد الطبيعى عند أهله ، ولكننا إذا رجعنا إلى تحديدهم لآفاق السحر ، وجدنا أنه لا يكشف — فى رأيهم — عن خفى الأمور والأحداث التى طواها الماضى أو أخفاها المستقبل ، وعلى هذا فليس من الممكن اعتباره إدراكاً غيبياً عند جمهرة مفكرى الإسلام .

والسحر الذى تتوافر فيه شروط الإدراك الغيبي كما نص عليها هؤلاء المفكرون ، هو سحر الأنبياء الذى يكشف عن مستقبل محجب ولا يحىء اكتساباً ، بل وحيّاً وتأيداً إلهياً ، ولكننا لم نجد من المفكرين من يعتبر هذا سحراً غير إخوان الصفا — وقد زعموا فى سياق تأييدهم له ، بأن الأنبياء قد عرفوا السحر ولكنهم لم يستخدموه ، لأنه ضرب من الحيل ، ولم يبعث الرسل من أجل ذلك ، ولو أنهم فعلوا هذا لكانت استجابة الناس إلى دعواهم ، استجابة للخديعة لا إلى العلم الذى فيه نجات النفوس ، ذلك بالإضافة إلى أن فوائد السحر تقتصر على العلم الأرضى ، والأنبياء دعاة العالم العلوى — الذى هو أعلى من عالم الأفلاك ، وقد أبى الأنبياء أن يضيفوا إلى تأييد الله ووحيه حيلة بشرية أو نيرنجية فلكية ، أما نحن فيجوز لنا استعمالها فى مصالحنا الدنيوية وهم فى غنى عما نفتقر إليه^(١) .

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٤٧٥ — ٤٧٧ وفى غير هذه الصفحات ما يؤيد ذلك مثل ٤٣١ و ٤٢٣ وغيرها .

ولكننا نلاحظ بأن السحر لا ينسب إلى الأنبياء إلا مجازاً ، فإن جمهرة المفكرين لا يهتمون مثل هذا الرأي ، والذين زعموا بأن السحر إتيان بخارق وأنه يكون معجزة للأنبياء وكرامة للأولياء والصالحين ، قد صادفوا الكثير من حملات المنكرين لرأيهم . فأما الفلاسفة فقالوا إن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس تأثيراً ، فالنبي يؤيد بروح الله على فعله ذلك ، أما الساحر فإنه يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال ، فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر^(١) ، وقد ذهب المتكلمون إلى أن الفارق بين المعجزة والسحر — والكرامة — أن الأولى تقوم على التحدى بها بإذن الله ، وهي واقعة بقدرة الله لا بفضل النبي — وقد أقاموا هذا الرأي على أساس فكرتهم في العقل المختار ، وإن كانت أفعال العباد تصدر عنهم — في رأي المعتزلة — إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، ولكن الحكماء الإلهيين ذهبوا إلى أن الخارق من فعل النبي وليس من الضروري أن يكون مقترنا بالتحدى^(٢) ، وكان أهل السنة يجوزون قدرة الساحر على أن يسبح في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً بقدرة الله^(٣) ، ولكن أهل الحق قد ذهبوا إلى أنه لا يقرب أحد عيناً ولا يجبل طبيعة إلا الله لأنبيائه وحدهم ، ولا يتبدل شيء مما في العالم من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه إلا حيث قام البرهان على تبدله^(٤) وفي المصادر التي نشير إليها إنكار بين لوصف الأنبياء بأنهم سحرة .

(١) ابن خلدون ص ٤٣٨

(٢) المصدر السالف ص ٨١ — ٨٢ ، وابن حزم ج ٥ ص ٧ — ١٠ يبطل هذا الرأي بخمسة أسباب يعرضها في تلك الصفحات .

(٣) التهانوي يعرض الفكرة ويناقشها في ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٥ ، ٦٤٩ — ٦٥٢

(٤) ابن حزم ج ٥ ص ٢ وما بعدها ، ويعرض الفكرة ويحمل عليها .

وعلى هذا فالرأى الراجح عند مفكرى الإسلام ، أن السحر لا يدخل فى نطاق النبوة ، وأنه إذا كان يكشف الغيب — ما اتصل منه بالماضى الخفى أو المستقبل المحجب ، فإنما يجىء هذا اكتساباً لا طبيعة وفطرة ، ولا حياً وإلهاماً . فليس فى السحر وفروعه فى مختلف معانيها ما يمكن أن يدخل فى نطاق الإدراك الغيبى الطبيعى كما نسلم به أهل الشرع ، على نحو ما أبنا فى الباب الذى عقدناه على « علم الغيب عند مفكرى الإسلام » .

وما ينبغى أن نفرغ من الكلام على السحر ، دون أن نسجل إعجاب الغربيين بمهارة المسلمين فى هذا الفن ، وحسبنا من هؤلاء الأستاذ « لين » Lane وقد روى الكثير من القصص التى شهد بها فى مصر بنفسه ، منها أن الشيخ عبد القادر المغربى قد تمكن بسحره من معرفة اللص الذى سطا على أمتعة المستر سولت Mr. Salt قنصل إنجلترا فى مصر ، وصرح بأن الساحر قد استطاع أن يستحضر أمام الوسيط — وكان صبياً صغيراً — صورة اللورد نلسون وشكبير وغيرها من أصدقاء « لين » ومعارفه ...!! وأكده صدق هذه الظواهر مع اعترافه بجهله بسرّها ، وتصريحه بأن الكثير من هذه التجارب قد فشل ، ولكنه يقول إنها كانت تبدو بين نجاح كامل أو فشل مطلق ، ولا وسط بينهما ، ويعقب قائلاً إن مجلة Review Quarterly قد حاولت — فى عددها السابع عشر ص ٢٠٢ — ٢٠٣ — أن تفسر مثل هذه الظواهر ، بانعكاس الصور على سطح مرآة ، حيث تتلقاها عيننا الصبي الوسيط ، على سحابة من الدخان ، ولكن « لين » رفض هذا الرأى تفسيراً لظواهر السحر التى رآها فى مصر^(١) .

حسبنا الآن هذا عن أساليب التكهن الصنعى ، ولسنا ندعى بأننا قد أحصيناها وعرضنا للكلام عنها جميعا ، أو بأننا استوفينا الحديث عما عرضنا له منها ، لأن هذا بحث يطول أمره ، ويعوزه من الجهد والوقت فوق ما بذلنا وما قصدنا .

ولعل من الخير أن نقول الآن إن أساليب التكهن قد دخلها الزيف والدجل كثيرا ، واتخذها البعض أداة للتجارة ، مستغلا سذاجة الناس وسرعة التصديق عندهم ، طمعا في اكتساب المال على حساب غفلتهم ، وقد مكّن لهذا الاستغلال اتصال التنبؤ بالميول الفطرية عند البشر^(١) .

ولكن من الخير أن نبين عن موقف أهل الشرع من هذه العلوم ، وإن كنا قد عرضنا له قبل ذلك موجزين ، فقد يكشف هذا عن وجوه من التقابل بين موقف مفكرى الإسلام وموقف مفكرى اليونان والرومان قديما ، وإن كان من الضروري أن ننص في هذه المناسبة على أن موقف المسلمين مرده إلى الدين ، يلجأون إليه ، ويستمدون منه العون في تأييد ما يرون تأييده ، أو مهاجمة ما ينكرونه من أساليب التكهن . أما فلاسفة اليونان والرومان فإنهم كانوا يلجأون في مناقشة هذه الأساليب ودحضها إلى العقل ومنطقه ، ومن أيدها منهم استعان بالتجربة والمنطق أكثرما استعان بتقاليد الشعوب وعقائده الدينية .

(١) اعترف بهذا « كوتوس » Quintus الرواقى ، فى ختام دفاعه عن فنون التنبؤ الطبيعى ، فصرح بفشو هذا الدجل فى روما قديما — (انظر الفقرة ٥٨ من الكتاب الأول فى كتاب العلم بالغيب لشيرون) وقد شرح شارل أبون موقف مجلس الشيوخ الرومانى فى مقاومة هذا الدجل (فى تعليقه على الفقرة السالفة فى طبعة جازنييه) .

موقف أهل الشرع من العلوم السالفة

اختلفت وجهات النظر عند المسلمين ، بين تأييد هذه العلوم وتحريمها ، ولعل مؤيديها كانوا متأثرين بالتراث العقلي القديم - ولا سيما الهيليني الذي انتقل إلى المسلمين في هذا الصدد ، كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الخلاف بين المتكلمين من معتزلة وأشاعرة ، وإخوان الصفا ومن إليهم في مجال التنجيم ، أما منكرو هذه العلوم الصنعية فقد تأثروا - فيما يظهر - بالروح الديني ، وتحقير كل تنبؤ لا يرد إلى وحى الله وإلهامه . ومن مظاهر هذا الخلاف أن نرى الغزالي يذكر العلوم التي يعتبرها العامة علوماً محدودة وليس منها ، فيقول ما خلاصته : إن العلم هو معرفة الشيء على ما هو به ، وأنه من صفات الله تعالى ، فكيف يقال إنه مذموم...؟ في الحق إن العلم لا يذم لذاته ، وإنما يذم في حق الناس لأحد أسباب ثلاثة ، يعيننا منها اثنان : (١) أولها أن يكون العلم مؤدياً إلى ضرر صاحبه أو أذى غيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات ، وهو في ذاته حق إذ شهد له القرآن ، والثابت أن الرسول قد سحر حتى أنبأ بذلك جبريل وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر ، فمعرفة السحر ليست مذمومة إلا لأنها أداة لإضرار الناس : (٢) أن يكون مضرراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم - فهو في نفسه غير مذموم لذاته ، وعلم الأحكام منه ما هو مذموم شرعاً ، قال الرسول إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا... وقال أخاف على أمتي بعدى من ثلاث : حيف الأمة ، والإيمان بالنجوم... وقال عمر تعلموا من

النجوم ما تهتدوا به في البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :
(أ) قد يظن الناس أن الكواكب هي المؤثرة فهي الآلهة المدبرة يرجى منها
الخير ويحذر منها الشر من جهتها ، وينمحي بذلك ذكر الله ^(١) .

(ب) أن أحكام النجوم محض تخمينات ، فهي لا تدرك يقيناً ولا ظناً ، وقد
كان العلم معجزة لإدريس وأنمحي ، وما يتفق من إصابة النجم على ندور فهو محض
اتفاق ، كتخمين الإنسان بأن السماء ستمطر اليوم استناداً إلى الغيم ، وربما ذهب
الغيم فلا يصدق حدسه ، كتخمين الملاح بأن السفينة تسلم اعتماداً على ما عرفه من
أمر الرياح ، رغم أن للرياح أسباباً خفية لم يطلع عليها .

(ج) أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني ، وتضييع
العمر فيما لا طائل تحته ، وما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن ^(٢) .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العلماء بين مسلم بهذا التقسيم ومنكر له ،
فالسحر الذي أشير إليه الآن لم يتفق العلماء على حكم الدين بصده ، وهم بين مبيح ومحرم ،
وبعض مؤرخيه يقول إن أكثرهم قد أباحه ، وجعله بعضهم فرض كفاية لجواز
ظهور ساحر يدعى النبوة ويظهر الخوارق بالسحر ، فيفترض وجود من يدفعه في
الامة ^(٣) وقال بعضهم إن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق كما أن الكرامة لا تظهر

(١) أشار إلى هذا غير الغزالي من مفكرين ومؤرخين كالتهانوي ص ٥٢ وطاشكبرى
زاده ص ٢٧٦ وبعض المستشرقين — على ما عرفنا من قبل .

(٢) الغزالي في الأحياء ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ والسبب الثالث : ذم العلم لأنه لا يفيد فهو
مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها . . . وقد اعتبر التهانوي ص ٥٢ السحر والنجوم
والطلسمات والتيرنجات علوماً غير محمودة .

(٣) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧

إلا على يد متق مؤمن^(١)، وليس له دليل من العقل إلا إجماع الأمة، وعلى هذا كان تعلمه حراما مطلقا لأنه توسل إلى محذور، وأما ما يشير الدهشة مما يفعله أصحاب الحيل بالاستعانة بالآلات والأدوية، أو مما يبدو من صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز^(٢) وقيل إنه كفر لأن الأرواح الكافرة المعينة على السحر لا تجيب الساحر إلا إذا خرج عن دين الإسلام^(٣)، واحتج هؤلاء بآراء الأئمة الذين أجمعوا على تحريمه، وإن اختلفوا في كفر من يتعلم السحر ويعلمه^(٤)، والراجح أنه جرم لأن رياضته إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والخضوع والتذلل، فهي وجهة إلى غير الله^(٥) فإن الأصولي الأندلسي أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي يقول: إن العرب اعتنوا بعلوم صححت الشريعة منها ما هو صحيح، وأبطلت ما هو باطل، ثم يذكر علم النجوم بين العلوم الصحيحة، ويذكر العيافة والزجر والكهانة والضرب بالحصى والطيرة ونحوها بين العلوم التي أبطلتها الشريعة^(٦) وهكذا تراوح علم النجوم بين التحريم والإباحة.

وذهب البعض إلى أن علم النجوم على ثلاثة أقسام: حسابات تعيينية في علمها قد يعمل بها شرعا، وطبيعية كالاستدلال بانتقال الشمس في البروج الفلكية على

(١) أشرنا من قبل إلى أن هذا رأى الحكماء الإلهيين في ردِّهم على المتكلمين.

(٢) التهانوي ج ١ ص ٦٤٨

(٣) الشعراني في اليواقيت ج ١ ص ١٤٣

(٤) الشعراني في الميزان ج ٢ ص ١٤٣.

(٥) ابن خلدون ص ٤٣٤ - ٤٣٥

(٦) الشاطبي: الموافقات ج ٢ ص ٤٦ (عن الاستاذ أمين الخولي في تعليقه على مادة تفسير في

دائرة المعارف الإسلامية).

تغيير الفصول ، فليست بمردودة شرعا ، ووهميات (أحكام النجوم) كلاستدلال على الحوادث السفلية من اتصالات الكواكب ، فلا استناد لها من أصل شرعى ، ولهذا فهي مردودة شرعا ، والأحاديث النبوية فى هذا كثيرة^(١).

وقال بعض منكرى هذه الأصناف من إدراك الغيب ، إن الله تعالى يقول : وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، وأن الرسول يقول : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد^(٢) ، وقيل إن الكهانة على قسمين : فطرى وآخر كسبى ، (قيل إنه العرافة) وأن هذا هو الذى حرمت الشريعة سلوكه ، فوجب الاحتراز عن تحصيله واكتسابه^(٣) . ولكن بعضهم يعترف بأن فى حديث أهل الكهانة ما يعزى إلى الكفر^(٤) . وقد أشرنا إلى موقف المفكرين من الكهانة بعد بعثة الرسول وهجماتهم عليها حتى أبى الكثيرون أن يسلم بوجودها بعد البعثة ، والذين دافعوا عنها لم تسلم من حملاتهم دينيا ، وكان الفقهاء من متأخرى علماء الدين لا يرون فارقا - فيما يبدو بين الفلسفة والكهانة والسحر والشعبذة والتنجيم والرمل ! - ويحرمون الاشتغال بها^(٥) .

على أن الاتجاه الشائع - رغم هذه الخلافات كلها - هو الذى عرضناه فى الفصل الذى عقدناه على « علم الغيب عند مفكرى الإسلام » وقلنا فيه إن الله وحده هو علام الغيوب ، وأنه يهب العلم بالغيب من شاء أن يجتبيه من عباده ، وأن هذا الاتجاه قد انتهى إجمالا إلى تأييد التنبؤ الطبيعى فى مختلف فنونه ، وإنكار الصنعى فى شتى أساليبه .

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ وانظر القنوجى ص ٢٩٣ و ٦٢٣

(٢) التهانوى ج ١ ص ٥٢ ورواه الألبانى « ... فقد برىء مما أنزل على محمد ... »

(٣) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٩٥ (٤) حديث أبى سليمان السجستاني فى مقايسة

الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ص ٢٢٦ من المقايسات .

(٥) قارن مصطفى عبد الرازق باشا فى تمهيدته لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٨٨ - ٩ حيث

يورد استشهادين رائعين فى هذا الصدد .

موقفنا من التكهن الصنعى

عرضنا الأساليب التى كان يتبعها أصحاب التكهن الصنعى ، وقلنا إن جمهرة مفكرى الإسلام قد أبعدوها عن نطاق الإدراك الغيبى ، لأنها تستند إلى مهارة الصنعة ، ومنطق العقل وأدوات الحس ، ولا تصدر عن طبيعة أهلها وحدها ، أو تفيض عن وحى الله وإلهامه .

وهذه الأساليب مردّها - فيما يبدو لنا - إلى سعة الخيرة ، وبعد النظر ، وحسن التقدير ، وتوثب الفطنة والتبصر ، ووقدة الذكاء وسرعة البديهة ، وصدق الحدس ، ودقة الملاحظة ، وحسن الأفادة من سابق التجربة ، ونحو هذا مما رفض جمهرة مفكرى الإسلام إعتباره أداة لإدراك غيب محجب ، ولكن مناهج البحث العلمى لا ترفض اكتشاف المجهولات ، متى أدت إليها مقدمات ، استناداً إلى القول بأن العلة تدور مع معلولها وجوداً وعدماً ، ومن هنا جاز القول بأن ما أسلفناه من أساليب التكهن الصنعى ، يصدق منه كل ما وضحت فيه روابط المعلول بعلة ، ويكذب منه فى منطق العقل كل ما افتقدت فيه هذه الصلات ، وإن كان من الضرورى مع هذا أن ننص على أن عجز العقل عن تفسير ظاهرة ما ، لا يبرر التأدى - فى كل حال - إلى إنكار هذه الظاهرة^(١) . وفى ضوء هذا ، نستطيع أن نحمل - موجزين - أهم ما أسلفناه من الأمثلة التى عرضناها فى أساليب التكهن الصنعى :

(١) سنعود إلى مناقشة هذا فى الفصل التالى .

ذكرنا نموذجاً للكهانة يتمثل في التنبؤ بسيل العرِم - الذى ورد ذكره في القرآن الكريم ، وقلنا إن ظريفة الخير قد كهنت بأمر السيل في رؤيا ، ثم تطيرت من مشاهد المناجذ والساخفة ونحوها ، فتنبأت بوقوع السيل الذى اجتاح البلاد على ما عرفنا ، والملاحظ من هذا أننا لا نجد بين مآرائه وما انتهت إليه ، علاقة علّية ، ومع هذا لا نميل إلى تكذيب القصة ، لأننا نجد في تحليلها ما يغنينا عن إنكارها ، لأن من الميسور على أهل الخبرة والفتنة ودقة الملاحظة والعلم بقوة السيل في كل عام ، وملاحظة التحلل الذى بدأ يدرك السد ، أن يتوقعوا عجز السد عن مقاومة السيل المقبل ، وأنه إن استطاع أن يصمد للسد عاما ، فلن تدوم مقاومته أكثر من سبع سنين - كما ورد في القصة - وحسب ظريفة وأمثالها من الكهان ، أن يدركوا ذلك ، أو أن يتسامعوا به من أهل الخبرة والفتنة ، فإن هذا كفيل - من الناحية السيكلولوجية - بأن ينشئ عند النوم حلما تبدو فيه سحابة تنهمر وسط رعد وبرق ، ويكبر المنظر في منطق الحلم ، فلا تأتى السحابة على شيء إلا أحرقتة .. !

وأما المشاهد التى تثير التطير والتشاؤم ، فإنها كثيرة في حياة كل إنسان ، في كل زمان ومكان ، فإن كان للمناظر التى رآتها تلك الكاهنة دلالة على غيب محجب ، فلماذا تكون دلالتها قائمة في وقوع سيل مجتاح ، ولا تكون موت عزيز أو قيام حريق أو نزول وباء أو نحو ذلك .. ؟

وأما الفأر الذى كهنت بوجوده في السد ، واقتداره على قلب صخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلا ، فإن هذا مرده إلى الإغراب في التصوير ، والتنميق في التعبير ، أو مرجعه إلى القول بأن سدا كبيرا يتحلل - كسد مأرب - لايسهل تصوره خلوا من الفيران ، وفي استطاعة الفأر أن يحفر تحت الصخرة الكبيرة فإذا بها تهوى

مقلوبة ..! ولعل من قبيل الإغراب في التصوير ، امتلاء الزجاجاة بتراب البطحاء من غير ريح ، وظهور الحصباء في سعف النخل ..!

ومن قبيل هذا الذى يفتقد فيه العقل الالاقاة بين المعلول وعلمته ، مارويناه من أمثلة العرافة ، فى الاستدلال على المغيّب بكلمة تُسمع أو منظر يرى أو نحو ذلك ، وليس من السهل أن نكتشف علاقة علمية بين نوى التمر الذى رآه العراف الأعمى ، والياقوت والزمرّد وغيره مما سرق من خزانة الرشيد ، إنها علاقة تشابه فى الشكل أو اللون أو نحوه مما لا يمكن اعتباره علاقة علمية بحال ما . ومن الواضح أن أشباه النوى فى غير الأحجار الكريمة كثيرة . ولعل الأدنى إلى الصواب أن يقال إن العراف قد تسامع بأن الرشيد قد سرقت خزانته ، وليس هذا بالشئ الذى يكتم نبأه ، فرتب العراف على ما سمع ، كل ما ورد فى قصته ، ومثل هذا يقال فى قصة أبى معشر وخلاص السجين وغيرها من قصص .

وما قيل فى الكهانة والعرافة ، ينسحب على الفأل والطيرة ، فإن ما وقع لجعفر البرمكى أو الوليد بن عبد الملك ، مرده إلى مجرد المصادفة فيما يلوح ، ولو لم يسمع جعفر الشعر الذى تطير منه ، لما كان فى حكم العقل أن يتغير مصيره من أجل ذلك . ولو لم يمزق الوليد كتاب الله ، ما كان محتمل أن ينتهى - من جراء ذلك - إلى غير القتل والصلب . وما أجل موقف عمر بن عبد العزيز حين أنكر استفتاء القمر فيما ينتظره من أحداث - على ماروينا من قبل ، وهذا يشهد بأن المسلمين - كغيرهم من شعوب الأرض لم يكونوا على اتفاق بصدد الإذعان لهذا النوع من التطير والتفاؤل . وقد صدق ابن قيم الجوزية حين قرر بأن التطير يكون لمن خافه وخشى مغبته ، وينعدم أثره عند من أغفل شأنه وأسقطه من حسابه .

فكان ابن قيم الجوزية ، أراد أن يقول : إن المثير الذى يؤدى إلى التطير عند

إنسان، قد يبعث على التلهي والتهمك عند غيره ، فالعبرة بمركز الاستجابة ، لا بمصدر الإثارة ، فإن المسكر ، يستجيب له أهل المرح بالغناء والرقص ، وأهل المزاج السوداوى بالكآبة والبكاء ، وأهل الشغب والإجرام بالتخريب والتدمير ..! فالؤثر واحد ولكن الاستجابات بيّنة الاختلاف ، ومن هنا كانت مثيرات التطير عند أهله ، تفضى عند أصحاب الأعصاب السليمة والمزاج المعتدل والنظر المتزن ، إلى التندر الظريف بالتطير وأهله، وقد تحدث الدكتور طه حسين بك في محاضرة له ، عن إسراف ابن الرومى في التطير ، إلى حد ملازمة بيته أياما ، لأنه رأى جاره الأحب أو نحو ذلك ، وعقب قائلا إن تشاؤمه وتطيره قد أصاب ديوانه ، فلم يعرض له أحد ، إلا أصابه من ذلك سوء ، « وبعض الناس يتندر بذلك ، لأن الأستاذ العقاد ، أراد أن يكتب عنه فسيجن .! وأرجو ألا تكون محاضرتنا عنه مصدر شيء من هذه الأشياء التى أعينكم أنتم منها إن لم أعذ منها نفسى ..! » (١)

وقد تحدث الدكتور عن طبيعة ابن الرومى ، في حدة مزاجه واضطرابه واعتلال طبعه وضعف أعصابه ، ودقة حسه التى تكاد تبلغ حد الإسراف . وذهب العقاد في معرض حديثه عن طيرة هذا الشاعر إلى أن « الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها » ولعل الأستاذ يريد بضعف الأعصاب ، ما يسميه الأطباء Neurasthenia وهى حالة تكون فى العادة وراثية ، وقد تنشأ عن ضعف البنية أو تتخلف عن الحميات والأمراض المعدية والإدمان على المخدرات والإصابات النفسية ونحوها ، وكثيراً ما تحدث عقب إجهاد حيوية الجهاز العصبى ، وتؤدى إلى

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٢٢٩ - ٢٣٠ (طبعة أولى)

قصور في العقل والجسد وهي تسمى Psychasthenia إن كانت أغلب أعراضها نفسية^(١)
 « والرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ، ولا يحس
 النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها ، وقد تصادفه الحوادث كما
 تصادف الناس كافة ، فتقع على نفسه موقعا خفيفا ، يملك معه عزمه ، ويضبط معه
 شعوره ، فهو في غنى عن الحذر والتوجس ... أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة في
 حسه ، والأشباح والأطياف كثيرة في وهمه .. تتوارد عليه المنبهات ، وكل طارق في
 الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج - فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ، ويلجح المخاوف حيث
 لا يلحها الآخرون ، كما هو الشأن في كل مستحضر للحذر ، متوقع للمفاجأة »^(٢)
 فالتوقع واستحضار الحذر من كل مجهول ، هو سر التطير عند أهله .

أما شيوع التنجيم في قصور الخلفاء فإن له ما يبرره ، لأن الملوك والحكام أكثر
 الناس حرصاً على مراكمهم ، وتهيبا من مخبئات عدوهم ، ولا غرابة - إن صحت القصة -
 في أن يتنبأ إنسان بوفاة الحجاج وهو مشرف على الاحتضار ..! وليس ثمة ما ينفي علم
 المنجم بأن أم الحجاج كانت تسميه كليبا ..! ومثل هذا يقال في الكثير من أحداث
 المنجمين مع الحكام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن من هؤلاء الحكام من رفض
 الاعتقاد في صحة ما يقول المنجمون .

أما عن الفراسة وفروعها ، فليس من الغريب أن يصدق « الكثير » منها ، وإن
 كان الرازي يقول عن علم الشامات والخيلاان والاختلاج والضربان ، ودوائر أبدان

(1) H. Letheby Tidy, A. Synopsis of Medicine p. 124 ff.

سادس طبعة ١٩٣٤ - وقد أمدنا صديقنا الطبيب الموفق الدكتور رجب عبد السلام (إخصائي
 الأمراض الباطنية بكلية الطب) بمادة طبية في التعليق على هذه النقطة ، ولكن ضيق المقام حال
 دون نشرها . (٢) العقاد : ابن الرومي ص ١٩٣ - ٤

الخليل ونحوها ، إن من المتعذر ردها إلى أصول علميه ، أو إرجاعها إلى تجارب مروية عن المتقدمين^(١) ، ولكننا نرى أن ما يصدق منها يمكن إخضاعه لقانون العلية ، وفي ضوء هذا نقول إن قيافة الأثر ، تبدو أصدق من قيافة البشر ، فقدرة أولاد زار بن معد على وصف بعير - لم يروه - استنباطا من آثاره ، لها ما يبررها في مجال التعليل الذي يكشف عنه النظر الثاقب ، وتبيّن له دقة الملاحظة . أما قيافة البشر فقد كان المسلمون على حق في الاختلاف في أمرها ، فإن كثرة الشذوذ في قواعدها ، تفسد اتساق هذه القواعد ، والمثال الذي سقناه للتدليل على فراسة أقليمون ، يمكن تفسيره بأنه كان يعرف ميل بقراط للزنا ، وإذا كان هذا قد صرح بميله لتلامذته حين استفسروا منه عن ذلك ، فلا يبعد أن يكون قد ذكر هذا من قبل ، وأن يكون أقليمون قد تسامع به ، ولا صحة لقول رواة القصة ، إن «إقليمون» كان لا يعرف أن صاحب الصورة هو بقراط لأنهم يقولون «... فصوّروا صورة بقراط .. وكانت يونان تحكم المصوّر من جميع الوجوه ، في قليل أمره وكثيره ...» وكان بقراط هذا يعاصر أقليمون ، فالراجح أنه كان يعرف صورته .

وإذا كان الاهتداء بالبرارى والفقار والريافة واستنباط المياه والمعادن ونزول الغيث ونحوه ، يصدق متى صحت المقدمات التي تفضى إلى نتائج هذا النوع من العلم ، فإن علم الأساير والأكتاف والاختلاج والاختبارات ونحوه ، لا يصدق - فيما يلوح - إلا مصادفة ، لا تسكن إلى قاعدة يشهد بها قانون العلية ، ويرتضيها منطق العقل .

وهكذا ننتهى إلى القول بأن أحداث الغيب المحجب ، يتيسر الإنباء عنها ، متى سبقتها مقدمات تنذر بها ، وهذه المقدمات تتكشف للقليلين ، وتخفى على الكثيرين ، لأن الناس يتفاوتون في خبرتهم ومدى ما يفيدون منها ، ويختلفون في دقة الملاحظة

وبعد النظر والقدرة على الحدس ، وغير هذا مما أسلفنا الإشارة إليه ، فإن ثبت انقطاع « الاتصال العليّ » بين أحداث الغيب ومقدماته ، وجب التصدى لتكذيبها ومحاولة تحليلها في ضوء المنطق العقلي وحده .

وإذا كنا قد استطعنا أن نحلل النماذج السالفة في ضوء المنطق وحده ، فمن الإنصاف للحقيقة أن نعترف بأن في فنون التكهن الصنعي ظواهر يقصر عن إدراكها وتعليلها منطق العقل في وضعه الراهن ، وهذه نقطة سنعود إلى مناقشتها وبيان موقفنا إزاءها في الفصل التالي .

وأخيراً ، من الخطأ البين أن يستخف الناس بأصحاب التكهن ، فإن « لومبروزو » ومدرسته التي تأتمّ به ، قد اعتبروا الولع بالغيب واستكناه أسرارهِ من علامات العبقرية . ! وهذه العلامات « مهما يكن الشك في استقصائها ، والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع ، صادقة في حالات ، ومقاربة في حالات ، غير أهل في كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عندما تتفق الظواهر والبواطن ، وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور » ^(١) . ولعل هذا الرأي يبرره ما أسلفناه من قبل ، من أن هذا التكهن قد لا يتيسر بغير استعداد فكري يهيئ لأصحابه ، وحتى الجانب المكتسب منه ، لا يتوافر للناس جميعاً ..

حسبنا هذا إشارة إلى مكانة أصحاب الولع بخفايا الغيب أو النزوع إلى استيضاح بواطنه وكشف أسرارهِ .

كلمة أخيرة

التنبؤ بالغيب بين مفكرى الإسلام وفلاسفة اليونان والرومان :

عرضنا فنون التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ، وقلنا إن قدماء الغربيين قد عرفوا ما يشبه فنون التنبؤ الطبيعى ، وأساليب التكهن الصناعى — من كهانة وعرافة وطيرة ونجامة وعيافة ونحوها — وصرحنا فى مقدمة الكتاب — وفى غضون الكثير من فصوله — بأننا نميل إلى رد الكثير من وجوه هذا التشابه ، إلى طبيعة العقل البشرى ، فى وحدة استجاباته للمؤثرات المتشابهة ، وقلنا إن هذه النظرية تتناول وجوه الحضارات البدائية من سحر وعقائد دينية ونحوها ، وتمتد إلى دقائق البحث العلمى .. ! فلنقف عند هذه الظاهرة قليلا :

نتائج التشابه فى مصادر الأثر ومراكز الاستجابة :

فى سنة ١٨٣٧ عقد تشارلس داروين Ch. Darwin عزمه على أن يكشف عن حقيقة النشوء بالانتخاب الطبيعى ، فاعتصم بالصبر والأناة ، وراح يتنقل فى شتى بقاع الأرض منقبا عن الوقائع التى يتطلبها بحثه ، عاكفا على عمله فى صمت يشير الإعجاب ، واتزان أضحى مضرب الأمثال ، عاف الطنطنة وزهد فى الدعاية لنفسه ، فأبى أن ينشر عن نتائج بحثه مقالا ، أو يشير إليها مجرد إشارة ، وإن صarach بها عام ١٨٤٤ صديقه العلامة يوسف هوكر Joseph Hooker فأسر إليه بخلاصتها خفية عن الناس (١) .

(1) A. D. White, A. History of the Warfare of Science with theology in christendom

واصل داروين بحثه في هذا الجو العلمى الصامت الهادىء عشرين عاماً ونيفاً .. !
وعندئذ — أى فى عام ١٨٥٨ — تلقى مذكرة من ألفرد والاس Alfred Russel
Wallace تتضمن خلاصة النتائج التى انتهى إليها فى بحثه موضوع النشوء بالانتخاب
الطبيعى ، خلال عشرة أعوام قضاها فى التنقيب والبحث والتنقل بين البرازيل
وأرخبيل الملايو ، ومع المذكرة خطاب يطلب فيه إلى داروين أن يبعث بها — بعد
الاطلاع عليها — إلى العلامة تشارلس ليل Sir. Ch. Lyell ليقدمها إلى منتدى
لينىوس Linnean Society . وما اطلع داروين على هذه المذكرة حتى أثارت دهشته ،
لأن صاحبها — والاس — قد اهتمدى على وجه التحقيق إلى نفس النتائج العامة التى
وصل إليها داروين من قبل .. ! ويسجل داروين — فى أمانة العالم التزیه — هذه
المفاجأة فى مطلع كتابه عن أصل الأنواع ، فيقول عن « والاس » إنه : « Has
arrived at almost exactly the same general conclusions that I have on
the origin of species » (1)

فما تفسير هذا الاتفاق الذى وقع بين عالين يبحث كل منهما مستقلاً عن الآخر...؟
التفسير الراجح فى منطق العقل ، أن الوقائع التى كانت موضوع البحث عند كليهما
من نوع واحد ، وطبيعة العقل عند كليهما واحدة ، ومن ثم انتهى البحث عند
كليهما إلى نتائج متشابهة ، ولم يكن فى حكم العقل أن تختلف وجهات النظر ، وقد
تشابه فى الحالين مصدر الإثارة ومركز الاستجابة .

وعندئذ نصحه (i) Ch, Darwin, The Origin of Species-intr. p. 1. (1920)
« هوكر » و « ليل » بالمسارعة بتقديم بحثه للهيئات العلمية وجمهور القراء ، مخافة أن يفقد ثمرة
عمله المتواصل طوال هذه المدة ، فقدم إلى منتدى لينىوس — مع بحث والاس — خلاصة بنتائج أبحاثه ،
ونشر البحثان فى الجزء الثالث من مجلة المنتدى ، وبادر إلى إصدار الجزء الأول من كتابه « أصل
الأنواع » فى يولييه ١٨٥٨ ، واعترافاً بمنهجه فى البحث وغزارة مادته ووفرة أدلته ، نسبت إليه
نظرية التطور ، وسقط عند الناس اسم « والاس » .. !

وإذا كان هذا هو الحال في دقائق البحث العلمى، في موضوعات لا تتصل بطبائع البشر، فما أحراه أن يكون كذلك في موضوع كموضوع التنبؤ بالغيب، تربطه بالطبيعة البشرية أوثق الصلات.

على أننا نبادر — دفعاً لكل لبس — إلى تسجيل احتياط لا سبيل إلى إغفال ذكره، وهو أن ميلنا إلى تفسير الكثير من وجوه التشابه في ضوء هذه النظرية، لا يمنع من ميلنا إلى التسليم بردّ وجوه من التشابه في هذا الصدد إلى نقل اللاحق عن السابق، وعدوى الآراء وتزاوج الثقافات.

على أن الكثير من الآراء التى انحدرت إلى المسلمين عن اليونان والرومان، مرجع الفضل فيها إلى قدماء الشرقيين ..!! فعن هؤلاء استقى الغربيون الكثير من الآراء التى تسلمت إلى العالم الإسلامى بعد ذلك — فيما يقول مؤرخو التكهن بالغيب. ومن دلالات هذه الظاهرة:

أن مجلس الشيوخ الرومانى قد قرر — فيما يقول شيشرون منذ عشرين قرناً — إيفاد ستة — وقيل عشرة — من أبناء البارزين من الرومان، إلى كل قبيلة من قبائل اتروريا، لدراسة أساليب التكهن، مخافة أن تضمحل وتتحول إلى أداة للتجار والارتزاق^(١). ويرجع انتشار علم التنجيم — فيما يقول بوشيه لوكليرك — في دول البحر الأبيض، إلى الكاهن الكلدانى « بيروس » Bérose^(٢) بل رد هيردوت فن التكهن اليونانى إلى أصل مصرى^(٣).

وقد مهر هؤلاء في التكهن بفحص أحشاء الحيوانات (1) Cicero, Divination, 1. 41 وتأويل النذر الزاجرة المستمدة من خوارق الأرض والسماء — انظر الفقرة التالية في الكتاب نفسه.

(2) Bouché. Leclercq, L'Hist. de la Divination, 1. p. 207

(3) قارن تعليقات شارل أبون في طبعة جانييه على الفقرة الأولى من القسم الأول في كتاب شيشرون السالف الذكر.

ويروى « شارل أيون » أن مجلس الشيوخ الرومانى كان كثيرا ما يضيق بكثرة الشرقيين من الكهان فى روما وإيطاليا كلها . وقد تقرر فى عام ١٣٩ ق . م طرد الكلدانيين من روما فى ظرف عشرة أيام^(١) .

ويصرح الأستاذ بوشيه لوكليرك Bouché-Leclercq بأن اليونان قد استعاروا الكثير من معلوماتهم فى موضوع الأحلام ، عن مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم^(٢) ، وإذا كان الثابت أن المسلمين قد استعاروا الكثير من وجهات نظرهم فى تأويل الرؤيا ، عن كتاب أرطيميدورس اليونانى ، على اعتبار أن ابن النديم يقول إن حنين ابن إسحاق قد نقل هذا الكتاب إلى العربية^(٣) ، فإن الأستاذ « سايس » يصرح بأن أرطيميدورس قد استقى مادة هذا الكتاب عن البابليين .. !^(٤)

فمن حقنا بعد هذا أن نقول إن العالم الإسلامى ، إذا كان قد استقى بعض آرائه فى أساليب التنبؤ عن الغربيين ، فعنى هذا أنه استرد تراثا شرقيا قديما كان قد انتقل إليهم وتفاعل مع تراثهم فى هذا الصدد ، وقد تمثل المسلمون هذه العناصر الشرقية المتغربة ، لأنها تسير روحهم وتتفق مع طبائعهم .

ومعنى هذا أن وجهات النظر الإسلامية فى موضوع التنبؤ بالغيب فى كل صورته ، مردها — فى الأغلب والأعم — إلى طبيعة التفكير عند أهلها ، والتراث الذى زودهم به الدين الإسلامى والبيئة العربية إجمالا . والنظرية التى حرصنا على تطبيقها على موضوع هذا الكتاب وهى « متى تشابهت مصادر الإثارة ومراكز الاستجابة ، تحتم

(١) شارل ابون فى تعليقه على الفقرة الحادية والأربعين من كتاب شيشرون Cicero فى « العلم بالغيب » طبعة جارنييه الفرنسية .

(2) Bouché-Leclercq vol. 1. p. 292,295

(٣) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٢٢٥ طبعة فلوجل .

(4) A. H. Sayce, Ency. of Religion and Ethics, art. Divination

وانظر فى تفصيل هذا كتابنا « الأحلام » .

أن تتشابه استجابة هذه المراكز « هذه النظرية لا تنفي تسليمنا باتصال المذاهب الغربية من رواقية وفيثاغورية وأفلاطونية محدثة وغنوصية Gnosticism ونحوها ، بالتفكير الإسلامى وتفاعلهما معه حتى اصطبغت بها استجابات العقل الإسلامى ، ولو أن تفكيره حين فلسف نظريته لهذا الموضوع ، أو علل ظواهره وفسرها في ضوء المنطق . وقد استوعب هذه العناصر الدخيلة وتمثلها ، وصبها في قالب عربى إسلامى ، يكاد الناظر إليه — في حالات التنبؤ الطبيعى بوجه خاص — ألا يفتن إلى المواد الغربية التى شاركت في تكوينه .

عود إلى موقفنا من التنبؤ :

أبنا في الفصل السالف عن موقفنا من التكهن الصنعى ، وعرضنا لتحليل النماذج التى سقناها شاهدا على صحة أساليبه ، وحددنا ما يصدق منها وما يبطل في منطق العقل ، وقلنا إن العقل العلمى يدعى لنوع من التنبؤ ، تستخلص فيه نتائج مجهولة من مقدمات معلومة ، على افتراض أن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما ، وليس يسهل على هذا العقل أن يسلم بنتائج لا تسبقها مقدمات يقرها ، ومعلومات لا ترتد إلى علل « قريبة » يسهل عليه إدراكها ، ومعارف لا تجيء عن طريق حس أو نظر عقلى ، ومعنى هذا — إن جاز أن يكون مثل هذا العقل العلمى ، هو الحكم الوحيد في قضية التنبؤ بالغيب — أنه سينتهى إلى عكس ما انتهى إليه مفكرو الإسلام ، حين رفضوا التسليم بالصنعى من أساليب التكهن ، فاستبعدوا من مجاله كل ما كان نتائج لمقدمات تبرر قيامها ، وأذعنوا للتسليم بالتنبؤ الطبيعى الذى لا يجيء صناعة ولا اكتسابا . . . !

ولكن الملحوظ أن التنبؤ الطبيعى ليس وحده الغريب على منطق العقل ، بل إن

في فنون الصنعي من التكهن ظواهر قد تقصر العقول عن إدراكها ، رغم أن بعضها يدخل في نطاق التنبؤ العلمي السالف الذكر ، من حيث إنها نتائج لمقدمات تسبقها ، ومعلومات لعل تؤدي إليها ، فإذا يكون موقف العقل من مثل هذه الظواهر . . ؟ أينكر صحتها استنادا إلى عجزه عن فهمها ..؟ كلا ، فإن من الحق أن يقال إن الظاهرة قد يستقيم وجودها ، مع الجهل بتفسيرها والقصور عن تعليلها ، وفي ذلك يقول فلاسفة الرواقية الذين أبلوا في الدفاع عن التنبؤ بلاء حسنا ، أن إنكار قيام ظاهرة ما ، اعتمادا على عجز العقل عن فهمها ، يبرر عند من يجهل سر المغناطيسية أن ينكر جذب المغناطيس للحديد وهو يراه بعينه ، ويبيح لمن يعجز عن تعليل علاج الأمراض ببعض الحشائش ، أن ينكر أثر هذه الحشائش في شفاء المرضى ، وكم شهدت التجربة بصدق ذلك !!

وهذا صحيح في منطق العقل نفسه ، ولكن هل معنى هذا أن العقل مطالب - تمشيا مع هذا المنطق - بأن يسلم بصحة ما يقصر عن إدراكه وتعليله . . ؟ كلا ، فإن بعض الذين أوتوا المهارة في الألعاب ، (كالخوذة ونحوهم) قد يأتون من الألعاب والحيل ما يثير كل دهشة ، وتقصر عن إدراكه العقول ، ومع هذا فإن بعضهم - على الأقل - لا يدعى بأن ألعابه التي يبدو أن تفسيرها ليس في متناول العقول ، أثر من آثار القوى الخارقة لنواميس الطبيعة .. ! فكيف تطالب العقل بعد هذا بأن يدع للتسليم بصحة كل ظاهرة لا يقوى على فهمها .. ؟ في الحق إن من الخطأ البين أن ينتهي الإنسان من قصور العقل عن التفسير والتعليل ، إلى القطع بالإنكار أو الجزم بالتأييد .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العقل ليس كل ما لدى الإنسان من أدوات

المعرفة ، وإن كان في رأينا أكملها جميعا .. ! وإن صح هذا كان من حق الإنسان أن يتردد في الإذعان لبعض أحكام العقل ، وأن يترث في إنكار الظواهر التي عجز هذا العقل بمناهجه عن تفسيرها ، هذا إلى احتمال أن تهيماً له في مقبل الأيام قدرة تمكنه من فهم ما عجز عنه في حاضره .. ! وتاريخ العقل أعدل شاهد على ما نقول .

ومعنى هذا أن قصور العقل عن إدراك ظاهرة ما ، أو تعادل السلب والإيجاب بصدد حكمه عليها ، لا يبرر التأدي من ذلك إلى متابعة هذا القصور ، والإذعان لهذا العجز ، والانتفاء إلى إنكار الظاهرة نفسها ، وإذا كنت قد كفت للعقل سلطانه في علاج هذا البحث منذ بدايته إلى نهايته ، فقد ألزمته حد الترجيح ، وأبيت عليه أن يتجاوز مجاله إلى نطاق اليقين ، رعاية لحُدس القلب ، واتقاء لما يحتمل أن يترتب على إفراد العقل من شطط التقدير ، وما أظن أني — وأنا أكبر العقل وأعتبره أكمل أدوات المعرفة إطلاقاً — أغالى إذا قلت إن من الخير لمن لم يجد من منطق عقله ، ما يهديه إلى وجه الاطمئنان ، أن يترث في إصدار حكمه ، وحسب الإنسان في بعض الحالات وحي قلبه ، فربما كان هذا أصدق من لاجاجة العقل وجموح تأملاته .. !

فهرس الكتاب

صفحة

٦ - ٣

مقدمة :

٢٤ - ٧

الباب الأول : علم الغيب عند مفكرى الإسلام

١ — علم الغيب

حد الغيب ص ٩ — علم الغيب لا يجيء اكتساباً ١٠ — العلم بالغيب عند صفوة البشر ١١ —
علة الإدراك الغيبي ١٣ — اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحي والإلهام ١٤ — الاتجاه
الفلسفى ١٤ — الاتجاه الصوفى ١٥ — منابع هذه الأفكار : موقف القرآن الكريم ١٧ —
موقف اليونان والرومان من العلم بالغيب ١٩ — المسلمون بين القرآن وتراث القدماء ٢٢ —
ملاحظات على بعض ما سلف ٢٣

٩٠ - ٢٥

الباب الثانى : التنبؤ الطبيعى عند مفكرى الإسلام

٣٩ - ٢٧

١ — إدراك الغيب عند الأنبياء

العلم النبوى ص ٢٧ — إمكان الوحي ٣٠ — تلاقى النبوة والفلسفة ٣٢ — نماذج من
نبوءات رسول الله ٣٣ — القرآن والعلم ٣٥ — بين الدين والعلم فى هذا الصدد ٣٦ —
منابع التفكير الإسلامى فى الوحي : موقف القرآن ٣٦ — موقف اليونان والرومان من
الوحي ٣٨

٦٧ - ٤٠

٢ — إدراك الغيب عند أهل الكشوف الصوفى ومنهم إبراهيم

علاقة الولاية بالنبوة ٤٠ — الولاية دون النبوة ٤٠ — الولاية صنو النبوة ٤١ — الولاية

أسمى من النبوة ٤٢ — الكشف عند الصوفية ٤٣ — عوائق الكشف الصوفي ٤٤ —
طريقة الكشف عند الصوفية ٤٥ — الكشف عند أهل التصوف السني ٤٧ — الكشف
عند أهل التصوف الإشرافي ٥١ — موقف القهاء من الصوفية ٥٢ —
أشباه الصوفية من مدركي الغيب ٥٤ — إدراك الغيب عند المجانين والمصروعين ٥٤ —
إدراك الغيب عند المعتوهين من مريدي الصوفية ٥٥ — إدراك الغيب عند المرضى والمشرفين
على الموت ٥٦ — منابع الكشف الصوفي في التراث القديم ٥٨ — موقف الدين الإسلامي
من هذه الآراء ٦٠ — الكشف الصوفي في تراث اليونان والرومان : موقف الرواقية ٦١
الغنوصية والأفلاطونية الجديدة وأثرهما في الكشف الصوفي ٦٣ — في التراث الشرقي
القديم ٦٤ — أهل الكشف من المجانين والمرضى ومن إليهم ٦٥

٩٠ — ٦٨

٣ — الرؤيا الصادقة

علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية ٦٨ — مذاهب المفكرين في تصور الرؤيا وتعليلها ٧٠ —
الاتجاه الصوفي ٧١ — الاتجاه الفلسفي في تصورهما وتعليلها ٧٥ — مناقشة الادعاء بأنها وحي
إلهي ٧٨ — تأويل الرؤيا ٨١ — نماذج من الرؤيا الصادقة وتحليلها ٨٣

الباب الثالث : فنون التكهن الصنعي عند مفكري الإسلام ٩١ — ١٦٣

فنون التكهن الصنعي ٩٣

١٠٤ — ٩٣

١ — علم الكهانة

آفاق الكهانة ٩٣ — أصل الكهانة ٩٦ — صلة الكهانة بالنبوة ٩٧ — مراتب الكهان
١٠١ — نموذج من الكهانة ١٠١

١٠٨ — ١٠٥

٢ — علم العرافة

حدها وتميزها عن الكهانة ١٠٥ — نماذج من العرافة ١٠٨

٣ — علم الفأل والطيرة والعيافة ١١٠ — ١١٥

الفأل والطيرة ١١٠ — فن العيافة ١١١ — الفأل والطيرة بين التأييد والإنكار ١١٢ —
صفة الزاجر ١١٥

٤ — علم أعظام النجوم ١١٦ — ١٣٥

علم التنجيم ١١٦ — ميدانه ١١٧ — في تاريخه وتطوره ١١٩ — طرقه ١٢٢ — علم
التنجيم بين أنصاره وخصومه ١٢٣ — علم التنجيم بين الإلهام والتجربة والاستدلال ١٢٩ —
التنجيم في قصور الخلفاء ١٣٢ — فروع النجوم ١٣٤

٥ — علم الفراسة وأشباهها ١٣٦ — ١٤٤

ماهيتها وآفاقها ١٣٦ — تفريع الفراسة ١٣٧ — قيافة الأثر والبشر ١٣٩ — نماذج من
قيافة الأثر ١٤٠ — قيافة البشر ١٤١ — أشباه الفراسة ١٤٣

٦ — علم السحر ١٤٥ — ١٥٢

موضوعه ١٤٥ — مكانه في مجال الإدراك الغيبي ١٤٨

٧ — موقف أهل السمرع من العلوم السالفة ١٥٣ — ١٥٦

٨ — موقفنا من التكرهن الصناعي ١٥٧ — ١٦٣

٩ — كلمة أخيرة ١٦٣ — ١٧٠

التنبؤ بالغيب بين مفكرى الإسلام وفلاسفة اليونان والرومان ١٦٤ — نتائج التشابه في
مصادر الأثر ومراكز الاستجابة ١٦٤ — عود إلى موقفنا من التنبؤ ١٦٨ — فهرس
الكتاب ١٧١ — كتب المؤلف ١٧٤

كتب للمؤلف

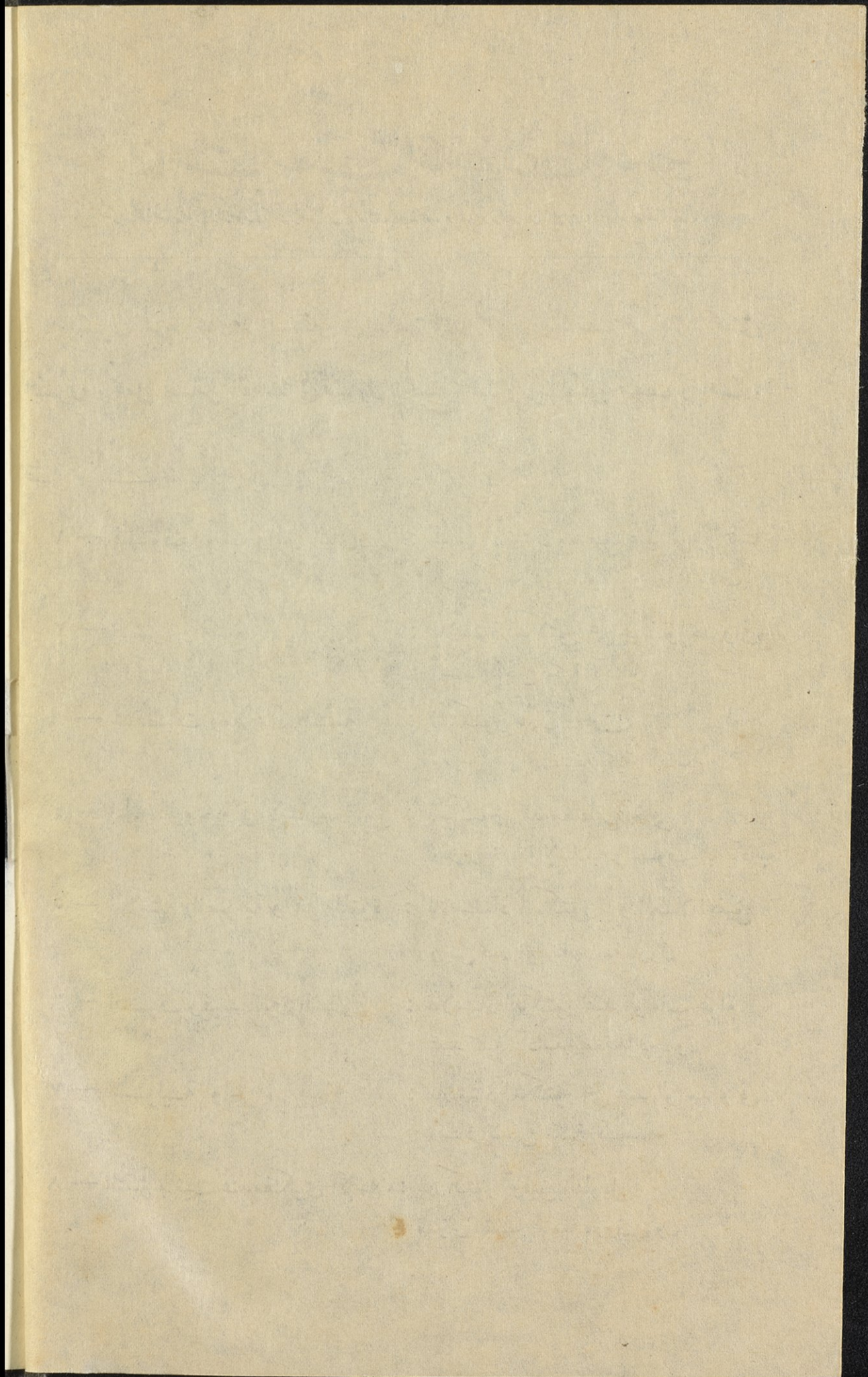
- ١ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام — صدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية .
فى أكتوبر ٩٤٥
- ٢ — الأحلام — بحث مقارنة : جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة فى مايو سنة ٩٤٣ وقامت بنشره مكتبة الآداب .
ظهر فى آخر سبتمبر ٩٤٥
- ٣ — الشعرانى : إمام التصوف فى عصره — صدر فى سلسلة أعلام الإسلام .
(للجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية)
ظهر فى أغسطس ٩٤٥
- ٤ — الفلسفة والإلهيات Philosophy & Theology ترجمة عن أ . غليوم ،
نشرت مع التعليق عليها فى كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam
الذى قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم
ظهر فى أكتوبر ٩٣٦
- ٥ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه — قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم .
ظهر فى نوفمبر ٩٣٦
- ٦ — العلم بالغيب فى العالم القديم — لفيلسوف الرومان وخطيبهم «شيشرون» +
٤٣ ق . م Cicero قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقاً لرسالة الدكتوراه
السالفة الذكر .
(سيطبع قريباً)
- ٧ — التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى — بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف فى يونيه ٩٣٨
(سيطبع قريباً)

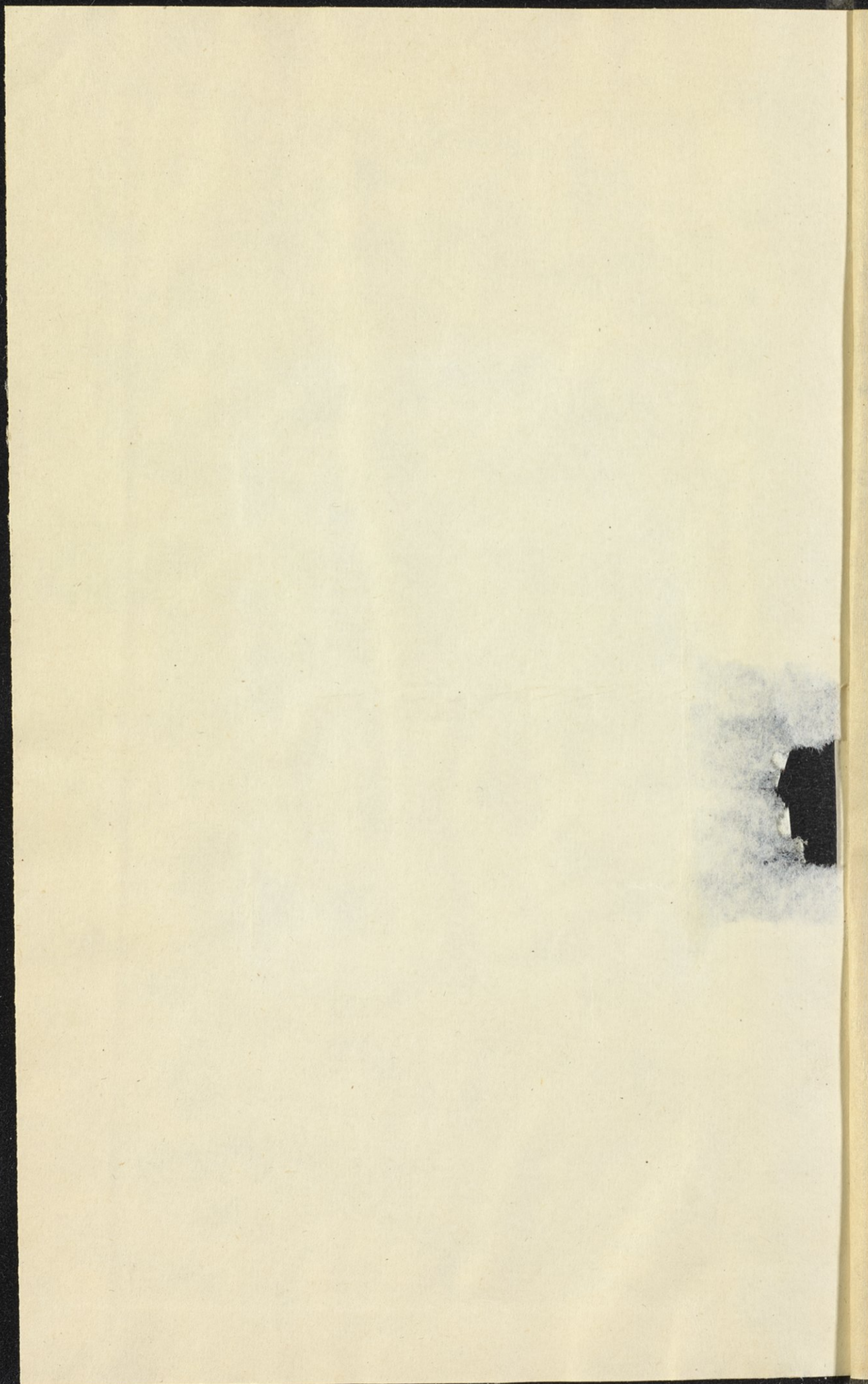
مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

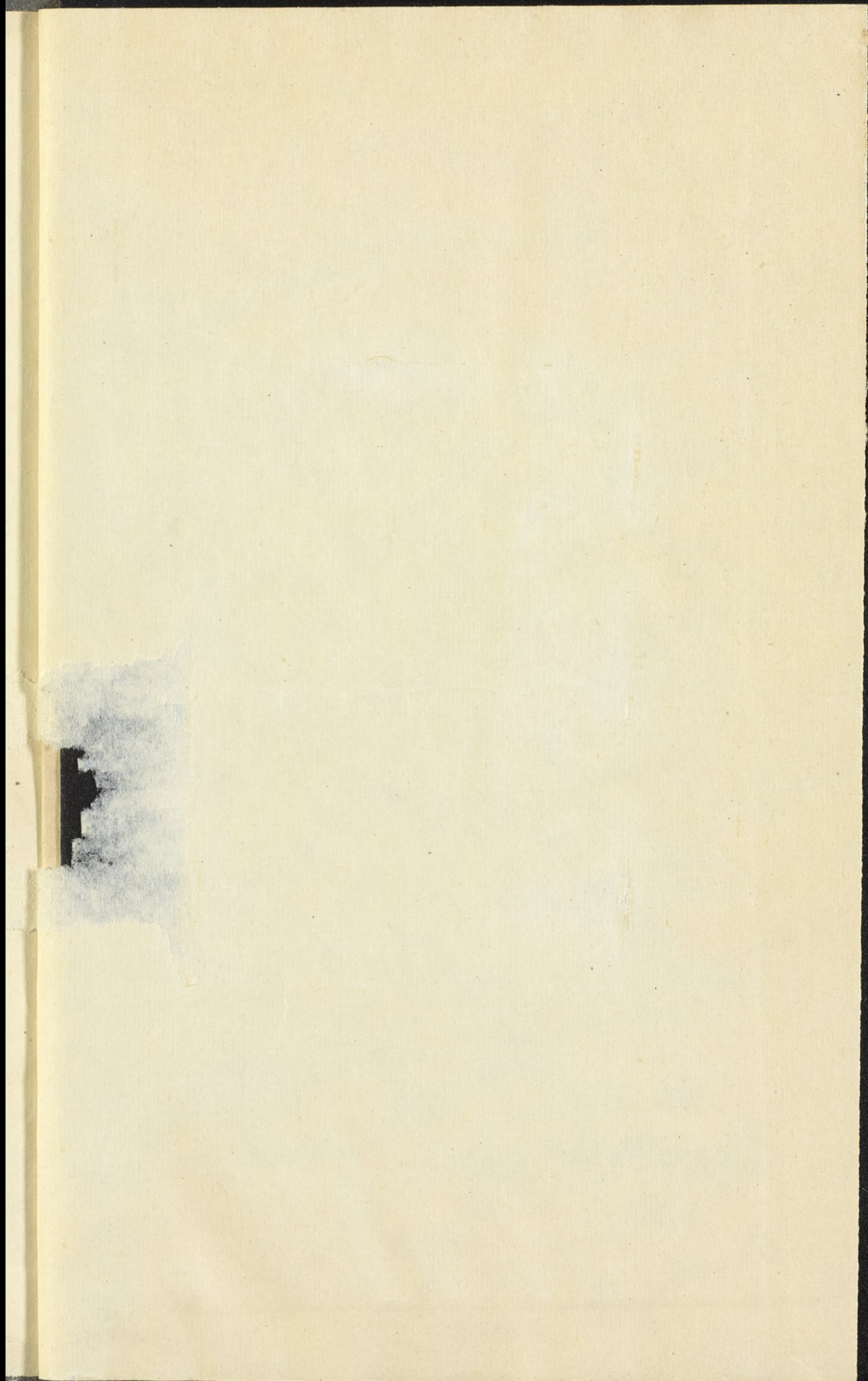
بشراف على إصدارها: الدكتور على عبد الوادى ، رئيس الجمعية - والدكتور عثمان أمين ، سكرتيرها العام

يشارك فيها أعلام الباعثين فى الفلسفة والاجتماع. تستأنف النهضة العلمية فى الشرق وتجعل مسائل الفلسفة فى متناول الجميع ، ضرورة لكل متقف وباحث .
ظهر منها :

- ١ - فيلسوف العرب والمعلم الثانى : لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا
الرئيس الفخرى للجمعية ووزير الأوقاف
- ٢ - الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب
- ٣ - شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب
- ٤ - الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حلمى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب
- ٥ - الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلاء عفيفى
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق
- ٦ - التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
- ٧ - المسئولية والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب
- ٨ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : للدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول







Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 072243478

(NEC)
BF1758
.A7
T23
1945